ابن الابار

نشأته ومشيخته وصيانة العلمية

لم يتعرض احد ممن ترجموا ابن الابار لحياته الاسرية ، حياة والده ووالدته واخوته واقاربه، وعلاقة هؤلاء بالمترجم واثرها فى تنشئته. ولعل السبب فى هذا ان طريقة التأليف عن الافراد ، وكتابة التراجم لم تكن تعنى بهذه الناحية، ناحية تأثير البيئة المنزلية فى الطفل او الناشىء ، وبابراز اثرها فى حياته. نعم، كانت طريقة كتابة التراجم - ولا زالت - تذكر المشيخة التى تتلمذ عليها المترجم لما لها من اثر فى حياته العقلية والثقافية. وهو ما سنجده فى ترجمة ابن الابار . اما والده فلم يكتب عنه شىء اللهم الا ما كتبه هو عنه فى مؤلفه « تكملة الصلة » . ولم يشر ابن الابار الى والدته بخير او شر . ولم يفعل ذلك احد من المؤرخين . وليس هذا غريبا، فلم تجر العادة ان يكتب المؤرخون شيئا عن الامهات - مجرد الامهات - عند ترجمة الافراد، اللهم

الا اذا كانت الأم[1] قد قامت بدور سياسى او اجتماعى أو أدبى هام ذى اثر فى حياة الشعب أو الحياة الثقافية أو الادبية فلنكتف اذاً بأنه كانت لابن الابار أم حنون عنيت به ككل الامهات ، قصرت مدة حياتها معه أو طالت ، اذ لم يذكر لنا شيئا عنها .

وابن الابار لا يصرح أو يلمح بذكر اخوة له أو اقارب ، ولا نريد هنا ان نستنبط ان عدم الذكر يفيد عدم الوجود ، ولكن نريد ان نصل الى حقيقة ، هى ان عدم الذكر لا يمكن من تكوين قضية ذات نتائج . وعلى هذا فليس فى استطاعتنا أن نقول كيف وبأية صورة أثرت علاقة ابن الابار باخوته واقاربه فى تكوينه ونشأته وصيرورته ما صار اليه علما وخلقا.

وهو يحدثنا عن أبيه [2] عبد الله بن ابى بكر بن عبد الله

---

(1) مثل زينب ابنة الخليفة ابى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، تزوجها ابن عمها ابو زيد بن ابى حفص بن عبد المؤمن ، وكانت أديبة عالمة بالتوحيد . وولادة بنت المستكفى ، وفاطمة بنت أبى القاسم عبد الرحمن بن محمد بن غالب القرطبى المعروفة بام الفتح وغيرهن (انظر تكملة الصلة ونفح الطيب الجزء الثانى من صفحة 489 الى صفحة 494 وكلها عن نساء الاندلس الشهيرات) (2) الترجمة رقم 1441 صفحة 510 من كتاب (التكملة) الجزء الاول .

ابن عبد الرحمن بن احمد بن ابى بكر القضاعى ، ويقول: انه من أهل [1] أنده، وانه سكن بلنسية بعد خروجه من أنده. ولا يذكر لنا متى كان القدوم الى بلنسية . ولكن الغالب أنه كان قبل مولد المترجم نفسه ، لان من تتلمذ عليهم الوالد - ممن سنذكرهم بعد - كانوا من علماء بلنسية . فاذا كان التتلمذ قبل الزواج او قبل مولد ابن الابار - وهو الغالب - صح استنباطنا أن قدوم الوالد الى بلنسية كان قبل سنة 595 هـ.

وكان يكنى ابا محمد، لان المترجم نفسه - ابن الابار - اسمه محمد . وكانت العادة - ولا زالت - فى البلاد العربية ان يكنى الرجل باسم ابنه او اسم ابيه، فيقال لعلي « ابو الحسين او الحسن» والحسن والحسين اسما ولدى علي بن ابى طالب ، ويقال ليحيى مثلا « ابو زكريا » لان زكريا [2] والد يحيى . وقد كان ابن الابار يكنى « ابو عبد الله » وعبد الله اسم ابيه .

ثم يذكر لنا ابن الابار الشيوخ الذين تتلمذ عليهم ابوه

(1) أندة مدينة من كور بلنسية ، ولد فيها والد ابن الابار ، وكانت من الحصون المنيعة التى اعتمد عليها المسلمون فى الدفاع عن بلنسية، وفى جبلها معدن الحديد (2) (يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى) الآية الكريمة.

فيقول : « أخذ القراءات عن الاستاذ ابى جعفر الحصار وأجاز له. وسمع [1] ابى من عبد الله بن لذح، وابى بكر بن قنترال، وابى عبد الله بن نسع، وابى على بن زلال . وصحب ابا محمد ابن سالم الزاهد المعروف بالسبطير».

وهذا النوع من الدراسة ، دراسة القرآن والقراءات والحديث والعلم هو ما كان شائعا مطلوبا مقصودا فى تلك العهود من تاريخ الاسلام. وكان هذا النوع الاساس الضرورى لكل من يرغب فى التوسع فى العلم والتقدم فى المعرفة، والقدر الكافى لمن يريد ان يكون بصيرا بشئون دينه ودنياه .

ويزيدنا ابن الابار تعريفا بأبيه فيقول: « وكان رحمه الله . ولا ازكيه . مقبلا على ما يعنيه ، شديد الانقباض ، بعيدا عن التصنع ، حريصا على التخلص». وهذه صفات خلقية تعطينا فكرة عن اخلاق الوالد الفاضلة ، تلك الاخلاق التى نجدها فى المسلم الحق الذى لا يتطلع الى معرفة شئون الناس وكشف اخبارهم ، المسلم العف عن لذات الدنيا ومغرياتها وشواغلها ،

---

(1) الحديث والعلوم الدينية .

المزور عن ان تلهوه عما هو فيه المتصف بالتذكر والتامل والتدبر في الحياة الآخرة ، المسلم الواثق من ان ما عند الله خير وابقى، فلا يتزلف الى ذى سلطان او يتقرب الى ذى مكان ، أو يظهر غير ما يبطن أو يتكلف معاملة الناس، المسلم القنوع الذى لا تغريه مناصب الدنيا ومباهجها ومظاهرها ، لانه يجد متعة وسعادة فى حياته الطبيعية العلمية الدينية الهادئة فيتخلص من الوظائف العامة كالقضاء [1] والفتيا، وكتابة العقود، أو الكتابة للامراء والسلاطين . وجماع القول ان اخلاق والد ابن الابار اخلاق رجل فاضل هادىء شديد الاتصال بالله، يعنيه من دينه واخراه أكثر ما يعنيه من دنياه.

ويشير بعد ذلك ابن الابار الى مكانة والده العلمية بما لا يشعر بمبالغة او تحيز فيقول وكان، مقدما فى حملة القرآن ، كثير التلاوة له ، والتهجد به ، صاحب ورد لا يكاد يهمله، ذاكرا للقراءات ، مشاركا فى حفظ المسائل ، آخذا فيما يستحسن من

---

(1) ممن تخلصوا من القضاء القاضى ابو علي الصدفى، والقاضى عياض. وقد كانت عادة فضلاء العلماء أن يستعفوا من القضاء صيانة لذمتهم ، وبعداً عن مواطن الشبهات.

الادب معدلا [1] عند الاحكام. وكان القاضي ابو الحسن بن واجب يستخلفه فى الصلاة بمسجد السيدة من داخل بلنسية ».

هذه صورة اخرى لوالد ابن الابار توضح لنا حقيقة علمه وفضله وخلقه ، وتبين نوع العمل الذى كان يشغله فى حياته ، ومركزه العلمى والاجتماعى . ومنها نستطيع القول بان الوالد لم يكن من قادة العلماء فى بلنسية او صاحب مركز اجتماعى او ديني ممتاز، وانما كان رجلا فاضلا فحسب، رجلا يسره ان ينوب فى امامة الناس - فى الصلاة - عن امام المسجد الدائم ، ويعتد بهذا. وكان نصيبه من حفظ القرآن ومعرفة القراءات والحديث وطرف من ادب [3] اللغة ، نصيبا لا بأس به ، نصيبا لم يرفعه الى مستوى العلماء المدرسين او المؤلفين فى عصره ، ولم يحطه الى مستوى العامة غير ذى البصر بأمور الدين والدنيا .

---

(1) هكذا فى الاصل والمراد ان احكامه عادلة يقال عدلت القاضي اى اعتبرت حكمه عادلا. (2) فى صفحة 179 من الجزء الاول من (التكملة) نجد الترجمة رقم 631 وهى لمحمد بن عمر بن محمد بن واجب ويكني «ابا الحسن» وفيها انه (3) من الطرف الادبية التى يرويها ابن الابار عن ابيه قوله : سمعت والدى يقول : حضرت شيخنا ابا عبد الله بن نوح ، وقد زاره بعض معارفه، فسأله عن حاله، وبالغ فى سؤاله، فجعل ابو عبد الله يحمد =

ولقد ذكر لنا المقري في نفح الطيب [1] نبذة عن الثقافة في الاندلس وما كان عليه أهلها ، وذكر « انهم أحرص الناس على التميز في العلوم والفنون . . . والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة ، يشار اليه ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس ويكرم في جوار او ابتياع حاجة او ما اشبه ذلك » . ولقد كانت هذه الحال في البلاد الاسلامية - ولا زالت - الى عهد قريب لاسيما في القرى والاماكن التي لم تفسدها الحضارة المادية.

ولم تكن لاهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم كتلك التي نعرفها في العصر الحديث ، بل كانوا يقرءون جميع العلوم في المساجد بأجرة. وكل العلوم لها عندهم حظ

= الله ، ويردد ذلك عليه ، ثم انشد متمثلا :

جرت عادة الناس أن يسألوا ✲ عن الحال في كل خير وشر
فكل يقول بخير اذا ✲ وعند الحقيقة ضد الخبر

قال ابن الابار : ومثل هذا للقاضي ابى بكر بن البيضاوي البغدادي. ونقلته من خط القاضي ابى بكر بن العربي :

اذا سألوني عن حالتي ✲ وحاولت عذرا فلم يمكن
أقول بخير ولكنه ✲ كلام يدور على الالسن
وربك يعلم ما في الصدو ✲ ر ، ويعلم خائنة الاعين

(1) صفحة 106 وما بعدها من الجزء الثاني طبعة دار المأمون.

واعتناء الا الفلسفة والتنجيم فان لهما حظا عظيما عند خواصهم وقراءة القرآن بالسبع ، ورواية الحديث عندهم رفيعة . والفقه رونق ووجاهة . ولا مذهب لهم الا مذهب مالك. وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به ، بمحاضر ملوكهم ذوى الهمم فى العلوم . وسمة الفقيه عندهم جليلة، حتى ان المسلمين كانوا يسمون الامير المظيم منهم الذى يريدون تنويهه بالفقيه.

وعلم الاصول عندهم متوسط الحال ، والنحو عندهم فى نهاية من علو الطبقة . وهم كثيرو البحث فيه ، وحفظ مذاهبه كمذهب الفقه . وكل عالم فى اى علم لا يكون متمكنا من علم النحو بحيث لا تخفي عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتمييز .وعلم الادب والمأثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستطرفات الحكايات انبل علم عندهم. وبه يتقرب من مجالس ملوكهم واعلامهم ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل. والشعر عندهم لهحظ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة . ولهم عليهم حظ ووظائف .

فى هذا الجو الثقافى الذى وصفناه نشأ والد ابن الابار، وأخذ منه بنصيبه، ووصل الى مستوى علماء عصره المثقفين المحترمين.

وكان لهذا التكوين العلمي والديني الذى وصل اليه والد ابن الابار اثر فى عنايته العلمية والدينية بابنه، واشرافه على تربيته. وهو اثر مباشر وغير مباشر. اما انه مباشر فدليلنا عليه قول ابن الابار نفسه عن ابيه: «تلوت عليه القرآن بقراءة نافع مراراً، وسمعت منه اخبارا واشعاراً، واستظهرت عليه كثيراً أيام اخذي عن الشيوخ، يمتحن بذلك حفظي. وناولنى جميع كتبه. وشاركته فى اكثر من روى عنه.»

فهذا قول صريح يدل على اهتمام والد ابن الابار بابنه وتربيته، اذ كان يعلم ابنه فى المنزل العلوم، او المواد الدراسية، الاساسية الشائعة فى ذلك الوقت، أعني القرآن وقراءته، والاخبار والحديث والادب. كان يعلمه هذا ويمتحنه فيما تعلمه بالمدرسة من الشيوخ. واى غاية مباشرة تنتظر من الوالد غير هذه؟ والوالد يقدم لابنه جميع كتبه. ومعنى هذا أن ابن الابار وصل من الحظوة والمكانة العلمية عند ابيه الدرجة التي

جعلته يعطيه[1] جميع كتبه. وليس المهم هنا هو مجرد اخذ الكتب وانما المهم ان الابن استطاع ان يقرأ ويفهم تلك الكتب جميعها او اكثرها، وان يجيزاه مؤلف هذه الكتب اومدرسوها الاحياء روايتها وتدريسها. ولهذا يقول المترجم «وشاركته فى اكثر من روى عنه» انه ليس من الصعب ان نؤكد ان درجة ابن الابار العلمية .. كما نعرفه من ترجمته .. وصلت الى المستوى الذى يسمح له بقراءة جميع كتب ابيه وفهمها، وانه كان جديرا بان تعطى اليه.

واما اثر الوالد غير المباشر فهو ما يقول عنه المربون من أن الجو العلمي والديني والخلقي، وللروح الثقافية التي تسود المنزل اثراً غير مباشر فى تنشئة الطفل وتكوين ميوله. ومن حظ ابن الابار أن يكون له اب كهذا الذى وصفناه، اب فاضل - كما قلنا - ومثقف. ويظهر من نغمة الوصف الذى قدمه ابن الابار عن ابيه أنه كان محبا له، محترماً علمه وفضله وخلقه،

---

(1) أيمكن ان نستنبط من هذا ان ابن الابار كان الابن الوحيد؟ او نستنبط انه كان اصلح اخوته علما، فاستحق ان يعطيه أبوه جميع كتبه؟

يقدر فيه خصائصه الكريمة ، ويرى فيها معانى وقيما سامية ، وكان متعلقا به ناهجا سبيله . وجميع هذه العلاقات التي نشأت بين الابن وابيه تؤكد انه كان للاب اثر غير مباشر فى تكوين ابنه [1] ، أثر ايحائي جذب الابن نحو أبيه روحيا ، فتمثل فيه نموذجا صالحاً ، ومثلا راقيا يحتذى .

وقد مات الوالد بعد ان اكتمل الابن رجولته ونضجه ، فقد كانت سنه اربعا وعشرين سنة عند ما توفى أبوه . وهو يقول عنه «وتوفى ببلنسية وانا حينئذ بثغر بطليوس عند الظهر من يوم الثلاثاء ، الخامس لشهر ربيع الاول سنة 619 . ودفن لصلاة العصر من يوم الاربعاء بعده ، بمقبرة باب بيطاله . وهو ابن ثمان واربعين سنة »

وبعد ، فنحن قد عرضنا الناحية من طفولة ابن الابار - هى تأثير البيئة الاسرية فى سنواته الاولى ، دون ان نذكر شيئا عن

---

(1) نعم قد يكون الاب فاضلا عالما وينشأ الابن على خلاف ذلك ولكنا لا نجد فى مثل هذه الحال العلاقات بين الابن والاب قوية طيبة روحية بل يحل محلها علاقات نفور وتنافس بين الابن والاب . ولا يبدو من الابن شعور الاحترام والتقدير الذى نجده عند ابن الابار.

ميلاده ، تاريخه وموضعه. ومصدرنا فى تحقيق هذا هو المترجم نفسه فهو [1] يقول : «مولدي عند صلاة الغداة من يوم الجمعة فى احد شهري ربيع سنة 595 هـ ». هكذا يقول ابن الابار عن مولده ، ولا يحاول ان يتحقق ، أو يحقق لنا ، أى الربيعين عنى ابوه . وهو تركٌ غريب منه واهمال وكنا نتوقع أن يهتم فيتأكد من شهر [2] ميلاده ، ويوفر علينا مؤنة التخمين ومع هذا فالفرق الزمني لا أثر له فى دراستنا هذا العالم وترجمته.

أما مكان مولده فقد تواترت الروايات على انه كان ببلنسية حيث كانت نشأته كذلك ، طفولة وغلومة ورجولة ، وكان عمله بعد ذلك .

ويظهر ان ابن الابار كان ذكيا ، طلق اللسان ، بادي النباهة منذ سنواته الاولى من طفولته ، وانه استجاب لبدء تعليمه القرآن والعلم منذ سنته الثانية . ونحن نلجأ لهذا الفرض

---

(1) صفحة 510 من الجزء الثانى من (التكملة) (2) فى دائرة المعارف الاسلامية تحت اسم « ابن الابار » يصرح الكاتب بأن مولده كان فى ربيع الثانى ، وكذلك يفعل الاستاذ نيكل *Nykl* فى صفحة 332 من كتابه : *Hispano - Arabic Poetry*

لنستطيع تفسير العبارة التي ذكرها ابن الابار عن نفسه وفهمها ، تلك العبارة هى :

«وكتب له (اى لابيه) القاضي [1] ابو بكر بن ابي جمرة يجيز له ، ولى معه ، جميع روايته مرتين ، احداهما فى غرة رجب عـام 597 والثانية فى منتصف ذى القعدة من العام المذكور ، وانا اذ ذاك ابن عامين واشهر.» نعم ان تفسير هذه العبارة على ظاهرها يضطرنا الى افتراض ان المترجم كان من الوعي المدرسي والاستجابة العلمية والفهم فى تلك السن التى تمكنه من ان يبدأ فى قراءة القرآن والعلم وان يجاز له فى روايتهما . ولكن هذا الفرض لا يجد من طبيعة النمو البشري العقلي والجسماني ما يؤيده. فكيف يستطيع طفل جاوز السنتين ان يعى ويحفظ من العلم والقرآن ما يباح به لعالم من العلماء أن يجيزه روايتهما؟ ان هذه المسألة تحتاج الى ايضاح من التاريخ والحوادث ، ايضاح يقرب الى ذهن القارىء فى عصرنا هذا

---

(1) هو من قضاة مرسية وعلمائها، تتلمذ عليه ابو سليمان داود بن حوط الله انظر التكملة صفحة 83 من الجزء الاول .

تقليداً علمياً بعد به العهد ، ولا يعمل به الان الا قليلا فى بعض البلاد الاسلامية . فلنذكر اذاً شيئا عن الاجازة العلمية ، معناها وطرقها ، وما يترتب عليها .

الاجازة مصدر اجاز يجيز اى جعل عملا من الاعمال جائزا بعد ان لم يكن كذلك ، بان كان حراما او مكروها. وقد اخذت هذه الكلمة فى تاريخ التعليم الاسلامى وفى تاريخ التصوف معنى اصطلاحيا خاصا. ففى باب التعليم الاسلامى وتاريخه نجد ان دراسة الكتاب فى المادة الواحدة تكون جزءاً من منهج الدراسة ، فكان الطالب يتتلمذ على الاستاذ فيدرس عليه - فى مادة اللغة مثلا - كتابا او جزءا من كتاب احيانا ، ويطلب من استاذه ان يجيز تدريس هذا الكتاب او الجزء الذى درسه عليه ، فيقبل الاستاذ ان يجيزه متى اقتنع بان التلميذ قد درس هذا الكتاب دراسة اتقان وفهم ، تؤهله لان يقوم بتعليمه غيره ، وفى هذه الحال يكتب له الاستاذ «اجازة» تخول له رواية هذا الكتاب ، وتدريسه ، وربما سمع التلميذ من استاذه قدرا من العلم او الحديث او الشعر دون ان يكتبه

فيطلب من استاذه ان يجيزه رواية هذا القدر عنه ، فيجيزه الاستاذ كتابة او شفاها .

ونظام الاجازة هذا قديم فى تاريخ التربية الاسلامية فالقلقشندى يحدثنا فى صبح الاعشى تحت عنوان «الاجازات بالفتيا والتدريس والروايات وعرضات الكتب ونحوها» ان العادة قد جرت اذا تأهل بعض اهل العلم للفتيا او التدريس ان يأذن له شيخه فى ان يفتي ويدرس ، ويكتب له بذلك... وان العادة قد جرت ان بعض الطلبة اذا حفظ كتابا فى الفقه، أو أصول الفقه أو النحو ، أو غير ذلك من الفنون ، يعرضه على مشايخ العصر فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب، ويختبره فى مواضع . فان مضى فيها من غير تلعثم استدل على حفظه وكتب له مجيزا (1)

---

(1) يمكننا تشبيه هذه الاجازات بالدبلومات التى تمنحها الان المعاهد والجامعات الطلبة، غير ان الدبلومات تمنح عادة بعد قضاء مدة من الزمن بنجاح فى الامتحان. اما الاجازة فليست مقيدة بزمن مخصوص، وانما شرطها اجادة فهم الكتاب او الكتب او المادة . وكما ان قيمة الدبلوم الان تتوقف على شهرة الجامعة التى درس فيها الطالب ومنحته الدبلوم كذلك كانت الحال مع الاجازة، فان قيمتها كانت تتوقف على شهرة الشيخ الذى يمنح=

هكذا كانت الحال فى جميع البلاد الاسلامية . وقد كان الطالب يستجيز من أساتذة العلم الذين لم يرهم كتابة اذا كان قد قرأ بعض كتبهم على غيرهم من العلماء ، واقنع مؤلف الكتاب بقدرة التلميذ على تعليمه غيره او صحة روايته . وقد توسع العلماء فى منح الاجازات وسخوا لدرجة انهم كانوا يمنحونها طالب «الاجازة» ومن يتتلمذ عليه او ابنه ثقة منهم بقدرة طالب «الاجازة» هذا على الا يمنحها الا لمن يستحقها ممن تتلمذ عليه ، او تكريما له . وقد سعوا كذلك فى منحها الصغار من طلبة العلم او ابناء العلماء حتى قبل ان يزاولوا تعلم العلم ثقة منهم بان آباءهم سيكونونهم التكوين العلمي الصالح الصحيح الذي يمكنهم من نقل رواية الكتاب سليمة صحيحة . وهذا ما حدث مع والد ابن الابار وابن الابار نفسه حين كتب لهما القاضي ابو بكر بن أبى جمرة مرتين مجيزاً لهما رواية مؤلفاته .

= «الاجازة» لذلك كان الطلبة يسافرون الى جهات بعيدة رجاء الحصول على اجازة من شيخ مشهور. وربما كتب الشيخ اجازته على الكتاب الذى يجيز تدريسه او روايته (راجع صفحة 188 من الجزء الاول من كتاب التربية فى السودان للمؤلف)

وقد كانت « الاجازة » احيانا تقابل ما يشبه اباحة «حقوق النقل او النشر » الان ، فكان المستجيز يطلب من صاحب هذا الحق ان يبيح له نقله تعليما الى غيره او روايته . يظهر هذا مما قاله ابن الخطيب فى الاحاطة [1] عند ما ترجم احمد ابن ابرهيم بن صفوان من اهل مالقة قال: «وجمعت ديوان شعره ايام مقامى بمالقة عند توجيهي صحبة الركاب السلطاني . . . عـام 744 هجريـة، وقدمت صـدره خطبة، وسميت الجـزء بالدرر الفاخرة واللجج الزاخرة ، وطلبت ان يجيزني وولدى عبد الله رواية ذلك ، فكتب بخطه بظهر المجموعة مـا نصه : الحمد لله مستحق الحمد . اجبت سؤال الفقيه الاجل الافضل ، السرى الماجد الاوحد الاحفل . الاديب البارع الطالع فى افق المعرفة والنباهة ، والرفعة المكينة والوجاهة ، بأبهى المطالع ، المصنف الحافظ العلامة ، الحائز فى فنى النظم والنثر ، وأسلوبي الكتابة والشعر ، رتبة الرياسة والامامة ، محلى جيد العصر بتواليفه الباهرة الزواء ، ومحاسن بنيه الرائقة على منصة الاشادة

(1) صفحة 100 ـ 108 من الجزء الاول .

والانباء ، ابى عبد الله بن الخطيب وصل الله ساعدته ، وحرس مجادته ، وسنى من الخير الوافر والصنيع الجميل الابهر قصده وارادته، وبلغه فى نجله الاسعد، وابنه الراقي بمحتده الفاضل ، ومنشئه الاطهر محل الفرقد ، افضل ما يؤمل نحلته اياه من المكرمات وافادته، واجزت له ولابنه عبد الله المذكور ابقاهما الله تعالى فى عزة سنية الخلال، وعافية ممدودة الافياء وارفة الظلال .. رواية جميع ما تقيد من الاوراق المكتتب على ظهر أول ورقة منها من نظمي ونثري، وما توليت انشاءه ، واعتمدت بالارتجال والرواية اختياره وانتقاءه ، أيام عجرى ، وجميع مالي من تصنيف وتقييد، ومقطوعة وقصيد ، وجميع ما احمله عن اشياخي رضى الله عنهم من العلوم، وفنون النثر والمنظوم، بأى وجه تأدى ذلك الي، وصح حملى له، وثبت اسناده لدي اجازة تامة فى ذلك كله عامة ، على سنن الاجازة الشرعى وشرطها المأثور عن أهل الحديث المرعي والله ينفعنى واياهما بالعلم وحمله ، وينظمنا جميعا فى سلك حزبه المفلح وأهله ، ويفيض علينا من انوار بركته وفضله. قال ذلك وكتبه بخطه يده

الفانية العبد الفقير الى الله الغني به أحمد بن ابراهيم بن احمد ابن صفوان، ختم الله تعالى له بخير، حامداً الله تعالى ومصليا ومسلما على نبيه المصطفى الكريم، وعلى آله الطاهرين ذوى المنصب العظيم، وصحابته البررة، اولى الاثرة والتقديم فى سادس ربيع الاخر عام اربعة واربعين وسبعمائة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ونعود الى تلمذة ابن الابار فنقول: انه لابد ان يكون قد تعلم اولا على [1] والده الحريص على تربيته وتثقيفه وتلقينه العلم، ثم تتلمذ على كثير من الشيوخ والعلماء. نجد هذا صريحا احيانا، واحيانا يذكر عرضا فى تراجم بعض الرجال فى مؤلفات ابن الابار. وقد ذكرت دائرة المعارف الاسلامية بعض اساتذة المترجم، ومنهم ابو عبد الله بن نوح، وابو جعفر الحصار، وأبو الخطاب بن واجب، وابو الحسن بن خيرة، وابو

(1) نفهم هذا مما ذكره المترجم - وأشرنا اليه فى الصفحات الماضية - من ان والده أقرأه القرآن والقراءات والعلم، ومن ان القاضى ابا بكر ابن ابى جمرة أجازهما معا. وكان هو قد جاوز الثانية بأشهر. وكان علماء المسلمين فى الماضى ولا زال بعض الاباء الان يلقنون أبناءهم مبادىء العلم او القرآن او القراءة فى سن مبكرة واذكر ان جدى علمنى حروف الهجاء وحفظنى الفاتحة قبل ذهابى الى «الكتاب».

سليمان بن حوط الله، وابو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن سعادة وابو الربيع بن سالم الكلاعى .

وفى التكملة [1] يذكر المؤلف عند ترجمته عبد الله بن يوسف . . . بن فرغلوش انه كان من أهل بلنسية ويقول : وكان صاحبنا (زميلنا فى التلمذة) روى معنا عن شيوخنا ابى عبد الله بن نوح، وأبى الخطاب بن واجب، وابى الحسن بن خيرة، وابى الربيع بن سالم وغيرهم .

وثمة شيوخ آخرون غير هؤلاء ورد ذكرهم عرضا فى [2] مؤلفات ابن الابار نذكر اسماءهم سرداً اولا، ونعود فنبين ما قرأه عليهم : محمد بن محمد بن عبد الله بن ابى زاهر المكتب حيان بن عبد الله بن محمد بن هاشم بن عبد الله . . بن فرحون بن حيان الانصارى، عبد الله بن اليتيم الخطيب نذير بن وهب بن لب، ابو محمد بن غليون ، محمد بن محمد ابن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الانصارى النحوى، ابو محمد

(1) صفحة 519 من الجزء الثانى، الترجمة رقم 1455 (2) هؤلاء عثرت على اسمائهم فى المعجم، وتكملة الصلة، والحلة السيراء، واعتاب الكتاب. ولعل هناك غيرهم فى مؤلفاته التى لم اطلع عليها .

عبدالله بن محمد بن عبد الله.... بن مطروح التجيبى ، ابو عبد الله محمد بن ايوب بن محمد بن وهب بن نوح الغافقى ، محمد بن علي ابن محمد بن علي بن هزيل ، محمد بن ابراهيم بن مسلم البكرى ، محمد بن عبد الله بن محمد بن خلف بن قاسم [1] الانصارى.

واذا عرفنا ان ابن الابار ولد سنة 595 أمكن القول بأنه كان فى سنة 600 صالحا لان يذهب الى « المكتب » او المسجد لتلقى العلم وحفظ القرآن ، او لمنزل الشيخ معلمه ، اذ كان بعض الشيوخ يعلمون فى منازلهم. ونحن حين نبتدىء بهذه السنة (سنة ستمائة) يكون ابن الابار فى سن الخامسة وهى سن مبكرة جدا للتلمذة والتعلم الجدى الصحيح. ولكن لا بأس فى هذا فقد كانت السن [2] المألوفة لبدء الذهاب الى المدرسة (معهد

---

(1) ذكر ابن الابار فى صفحة 537 من الجزء الثانى من التكملة الترجمة رقم 1514 لعبد الله بن خليفة اهل البيش عمل بطليوس ، ثم قال «وقيل فى ولايته شعر قد كتبته فى معجم مشيختى عن ابى الربيع بن سالم وهو الذى افادنيه » فهذا يدل على ان ابن الابار كتب معجما لمشيخته ولم يصلنا . ولا بد قد فقد (2) راجع وفيات الاعيان ، وفوات الوفيات وحسن المحاضرة للسيوطى ، وطبقات الشافعية والطبقات الصغرى والكبرى للشعرانى ، وطبقات درضيف الله السورانى تجد فيها ما يفيد التبكير بالتعلم

العلم والقرآن) .

أما من أول أساتذته الذين حفظ عليهم القرآن ، وقرأه وتعلم منهم القراءات فنعرفه من اشارة ذكرها ابن الابار نفسه عند ما ترجم ابا عبد الله محمد بن [1] ايوب بن محمد بن وهب ابن محمد بن وهب بن نوح الغافقى من اهل بلنسية . فقد قال عنه : « تلوت عليه القرآن بالسبع ، واجاز لي ، وسمعت منه بعد والدى - رحمه الله - ومعه » . فهذه عبارة صريحة تدل على أن ابن الابار تعلم القرآن وقراءته السبع على هذا الشيخ حينما كان لايزال يتعلم على ابيه ، وبعد ان ترك التلميذ على ابيه . ونحن قد فرضنا أن ابن الابار - وهو فرض مبني على نص تاريخي - بدأ يتعلم القرآن والعلم على ابيه ، فيكون الشيخ محمد بن ايوب هذا من أوائل شيوخه فى القرآن والقراءات .

ويجدر بنا هنا ان نذكر شيئا من ترجمة هذا الشيخ ، نقلا عن رواية ابن الابار نفسه ، لما فى الترجمة لشيوخه من تقدير لمكانتهم العلمية ، وبيان لمستوى تحصيلهم وتفقههم

---

(1) الترجمة رقم 912 ، صفحة 297 من الجزء الاول من التكملة .

ونصيبهم فيما علموه .

كان الشيخ ابو عبد الله محمد بن ايوب بن نوح الغافقى من اهل بلنسية ، ودار سلفه سرقسطة . ويكني ابا عبد الله . اخذ القراءات عن ابي الحسين [1] بن هذيل وغيره وسمع منه ومن غيره من رواة الحديث ، وكانت الدراية اغلب عليه من الرواية ، مع وفور حظه منها وميله فيها الى الاعلام المشاهير . دون اعتبار لعلو الاسانيد. وولى خطة الشورى فى حياة شيوخه ، وزاحم كبارهم بالحفظ والتحصيل فى صغره . ولم يكن فى وقته بشرق الاندلس نظير له تفننا واستبحارا. كان رأسا فى الراسخين من العلماء ، وصدراً فى المشاورين من الفقهاء. قد برع فى علوم اللسان ، وتمرس حياته كلها بالمسائل ، وتقدم فى الفتيا ، واطلع على الاداب ، واضطلع بالغريب ، وشارك فى التفسير ، وتحقق بالقراءات ، واما عقد الشروط فاليه انتهت الرياسة فيه ، وبه اقتدى من بعده . . مع حسن الخط وبراعة الضبط ، وتدقيق

---

(1) راجع ترجمة رقم 1555 ، الصفحة رقم 550 من الجزء الثانى من تكملة الصلة .

النظر ، والامامة فى المعارف ، والبصر بالحديث ، والحفظ للانساب والاخبار ، والايضاح لما استغلق من معانى الاشعار الجاهلية والاسلامية ، وله تنابيه فى فنون شتى ، وتقييدات شاملة النفع والافادة .

وكان كريم الخلق [1] ، عظيم القدر ، سمحا جواداً . ولى قضاء بعض الكور النبيهة ، وخطب بجامع بلنسية وقتا . ولم يحظ بعلومه حظوة غيره ، مع غلبة السلامة عليه فى اعلانه واسراره ، واستغراق آناء ليله فى تلاوة القرآن واطراف نهاره . »

ويستمر ابن الابار [2] فيقول : « وبالجملة فلم يكن لشيخنا فى باب المنثور والمنظوم ما يناسب براعته فى افانين العلوم . أقرأ القرآن ، وأسمع الحديث ، ودرس الفقه وعلوم العربية والاداب واخذ الناس عنه ، ورحلوا اليه ، وانتفعوا منه ، وسمع منه جلة

---

(1) جرت عادة ابن الابار - وغيره من مؤلفى الطبقات والتراجم - أن يذكروا شيئا عن اخلاق المترجم مما يشير الى اهتمامهم بالناحية الخلقية فى الترجمة ، ذلك لان العلم والنقل كانا صنوين فى ذلك الوقت . ولكن بعض مؤلفى الطبقات كابن فرحون يعنى فى معظم تراجمه بالوصف العلمى للمترجم . (2) راجع ترجمته فى الجزء الاول من تكملة الصلة .

من شيوخنا واصحابنا(زملائه فى التلمذة) وطال عمره حتى أخذ عنه الاباء والابناء. وهو اغزر من لاقيت علما، وابعدهم صيتا. ولد أول وقت الظهر من يوم السبت الثانى من جمادى الاخرة سنة 530 . وتوفى فى اول وقت الظهر ايضا من يوم الاثنين لست مضين من شوال سنة 608 وصلى عليه ابو الحسن بن خيرة.

واذاً فلم يكن الشيخ محمد بن ايوب يعلم القرآن والقراءات فقط، بل كان استاذا عالما علامة بارعا فى علوم الحديث والفقه واللغة والاداب . وكان يؤمه الطلبة من انحاء البلاد ، وتولى القضاء والشورى فى الفقه . وتحرير العقود . ومع كل هذا العلم والقدر ينص ابن الابار على ان تلمذته عليه كانت فى تلاوة القرآن بالقراءات السبع .

واذا عرفنا ان هذا الشيخ توفى فى سنة 608 أى عند ما كانت سن ابن الابار ثلاث عشرة سنة ادركنا ان ابن الابار حفظ القرآن بالقراءات السبع وهو ابن ثلاث عشرة سنة او دون ذلك. وليس هذا بغريب، ففى طبقات العلماء كثير[1] امثاله

---

(1) ان القارىء لكتب الطبقات يجد أشباها لابن الابار مثل السيوطى =

على ان تتلمذ ابن الابار على الشيخ محمد بن ايوب هذا لا يعني انه كان شيخه الوحيد[1] في طفولته فقد قال لنا ابن الابار انه تتلمذ عليه وتتلمذ على ابيه ايضا (ابى ابن الابار) وهو يقول لنا كذلك انه أخذ قراءة نافع عن شيخ آخر هو محمد ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن ابي زاهر [2] المكتب من اهل بلنسية ويكني أبا حامد. وهذا الشيخ من بيت علم وقرآن. فقد كان والده يعلم القرآن والقراءات وعنه أخذه كما سمع من ابي العطاء بن نذير وغيره من رواة الحديث وعلمائه، ويقول عنه ابن الابار انه « أدب بالقرآن، وهو كان معلمي وعنه أخذت قراءة نافع . وبه انتفعت في صغري ، وسمعت منه ، واجازلي. وسمع مني كتاب (معدن اللجين في مراثي الحسين) من تأليفي . وكان امرأ صدق ، ناشئا في الصلاح ، محافظا على الخير ،

= والزمخشري والجاحظ والغزالي والائمة الاربعة مالك وابي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل، وعبد الوهاب الشعراني.

(1) كانت العادة ان يذهب الطفل الى اكثر من شيخ واحد اثناء تتلمذه.

(2) الترجمة رقم 1513 صفحة 343 من الجزء الاول من التكملة .

متواضعا، يجمع الى جودة الضبط براعة الخط . . وصلى بالناس الفريضة فى مسجد رحبة القاضي من داخل بلنسية دهرا طويلا. ورحل الى الحج . وتوفى بعيذاب سنة 633 .

واذا تذكرنا أن ابن الابار قرأ القرآن على رواية نافع مراراً على ابيه ادركنا ان الشيخ محمد بن زاهر المكتب هذا شارك أباه فى تعليمه هذه القراءة . والراجح عندى أن ابن الابار كان يتردد على هذا الشيخ قبل ذهابه الى الشيخ محمد بن ايوب لتلاوة القرآن عليه بالسبع، أو فعل ذلك فى وقت واحد، اذ كيف يستطيع ابن الابار تلاوة القرآن بالسبع قبل تمكنه من قراءة نافع وهى احدى هذه السبع ؟

وثمة شيء آخر جدير بالاشارة والتنبيه هو ان الشيخ محمد بن زاهر المكتب (1) لم يكن فى مكانة الشيخ ابن أيوب العلمية وشهرته . ولكنه مع ذلك كان ذا صلاح وتقوى خولاه أن يؤم الناس فى صلاة الفريضة . ولا شك عندى أن لتقوى

(1) كان بعض الشيوخ ينصرفون الى تعليم القرآن وقراءاته فقط ويشتهرون بذلك ويكونون لهم مدرسة معروفة فى تعليم القرآن والقراءات وقد ظل هذا الى عهد قريب فى بعض البلاد الاسلامية .

الاستاذ وروحه الدينية أثراً غير مباشر في نفس تلميذه، يحتذي حذوه ، ويتمثل فيه شخصيته المثالية .

أما قراءة ابن الابار كتابه «معدن اللجين في مراثي الحسين» عليه فلم يحدد لها المؤلف تاريخاً . وهنا نتساءل أكانت القراءة ـ قراءة هذا الكتاب ـ في مرحلة الطفولة عند ما كان المؤلف يتعلم منه قراءة نافع ، أم كانت في سن متأخرة بعد ان فرغ المؤلف من تلمذته عليه في القرآن ، فذهب اليه يعرض مؤلفه؟ اذا كانت الاولى جاز لنا أن نستنبط أن هذه المراثي قد ألفت في سنوات ابن الابار الاولى وفي طفولته ، وهو ما يدعو الى الاعجاب ، وتقدير موهبة المؤلف. وجاز لنا أيضا أن نتساءل: أكان المؤلف من النضج العقلي والشعري أو النثري بحيث يؤلف مثل هذه المراثي ؟ وان كانت الثانية فالامر هين .

وممن قرأ عليهم ابن الابار القرآن ابو الحسن علي بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن خيرة البلنسي خطيب مسجدها، وامام الصلاة . تقلد الامامة اربعين سنة فيها .

كان من مقرئي القرآن ، ومن رواة الحديث. وكان رجلا

مجتهدا فى طلب العلم بالاندلس والمشرق ، فقد اخذ قراءة ورش عن ابى جعفر طارق بن موسى ، ويقول ابن الابار ، واخذ القراءات عن شيخنا ابى [1] جعفر بن عون الله ، وسمع من ابى العطاء بن نذير وغيره . ، وحج سنة 578 وجاور فى بيت الله الحرام حيث تلقى العلم بمكة ، واخذ عن ابى حفص الميانشى فيها.

ثم رجع الى بلده ـ بلنسية ـ واقام فيها على حال من الانقباض وحسن السمت ، واقرأ القرآن وقتا ، وحدث ، واخذ الناس عنه ، وكان عدلا راجح العقل فى مشيخته كثرة ، ويقول ابن الابار : « وتلوت عليه بالقراءات السبع ، وسمعت منه جل ما عنده ». فهذا شيخ آخر تلا عليه ابن الابار القرآن بالسبع ، كما تلاه من قبل على الشيخ محمد بن ايوب الغافقى.

ولا يذكر لنا المترجم متى كانت هذه التلاوة ، وانما يقول : واختلط قبل موته بأزيد من عام ، وأخر عن الصلاة فى

---

(1) من صفحة 681 الجزء الثانى من تكملة الصلة الترجمة رقم 1905 وقول ابن الابار «شيخنا ابى جعفر بن عون الله» يدل على ان هذا الشيخ من اساتذته . ولم اعثر له على ترجمة الا فى كتاب نيكل المسمى *Hispano -Arabic Poetry* (الشعر العربى الاسبانى)

رجب سنة 633 لاختلال ظهر فى كلامه . وتوفى فى اواخر رجب سنة 634 . ونزل فى قبره ابو الربيع بن سالم ، وحضر جنازته السلطان . ومعنى هذا ان الشيخ ابن خيرة هذا كان من المكانة والفضل بالدرجة التى جعلت السلطان يمشى فى جنازته .

وممن سمع منهم ابن الابار الحديث وروى عنهم الشيخ ابو الخطاب احمد [1] بن محمد بن عمر بن محمد بن واجب بن عمر ابن واجب بن عمر بن واجب القيسى . وهو محدث كبير اشتهر فى شرق الاندلس. ولد فى بلنسية سنة 537 (42 ـ 1143م) ومات فى مراكش يوم الاثنين السادس من رجب سنة 614 (اكتوبر 1219م).

وقد قرأ ابن الابار على الشيخ ابى الخطاب هذا، الحديث والتاريخ . وذلك فى سنة 609 ، ما قبلها وما بعدها ، وسجل لنا هذا فى المعجم [2] عند ترجمته ابا الحسن جابر بن محمد الانصارى

---

(1) انظر ترجمته فى صفحة 871 من الجزء الاول من نفح الطيب طبعة اوربا *Analectes* وصفحة 5 من الجزء الثانى، وكذلك الديباج المذهب لابن فرحون صفحة 56 ، والترجمة رقم 274 من الجزء الاول من تكملة الصلة نشر محمد بن شنب و بل. (2) صفحة 71 الترجمة رقم 61.

فقال «وقرىء على ابى الخطاب القاضى وانا اسمع فى سنة 609».

والشيخ ابى الخطاب هذا اثر علمى قوي واضح فى حياة ابن الابار العلمية والتاليفية. فتجده يسند اليه كثيرا من روايات الحديث وروايات الاخبار، يقرن اسمه تارة بلقب «القاضى»، وتارة اخرى بعبارة «شيخنا»، وبقوله: «وقرأته عليه»، أو «وسمعته منه».

ويظهر ان ابن الابار لازم الشيخ القاضى المحدث المؤرخ ابا الخطاب طويلا. ولازمه ملازمة عميقة جعلته قوى الثقة بعلمه، وشديد التعلق باستاذيته. ولم لا والشيخ ابو الخطاب من بيت علم، كان جده ابو حفص عمر بن محمد بن واجب صاحب الاحكام فى بلنسية، فقيها، حافظا للمسائل، مفتيا، مشاركا، درس ونوظر عليه فى حياة [1] ابيه وبعده، حدث وكان من حفاظ المسائل الفقهية. وقد اخذ عنه حفيده ابو الخطاب شيخ ابن الابار.

---

(1) صفحة 655 من الجزء الثانى من التكملة، الترجمة رقم 1824 وكان والد المترجم ايضا معلما وعالما.

اما والده المكنى ابا بكر محمد بن عمر بن محمد . . . فكان من علماء بلنسية ايضا ، تتلمذ على ابيه ، وتفقه به ، واخذ القراءات عن ابى محمد بن سعدون الضرير . وولى القضاء بعدة كور من بلده . وقدم للشورى والخطبة بالمسجد . وكان دربا بالاحكام مقدما فيها ، معروفا [1] بالنزاهة . وكان يقال عنه انه أنبه بنى واجب .

وابنه كان استاذ ابن الابار وكان يلقب بابى الخطاب كما ذكرنا . وكان يدرس الحديث بجامع بلنسية لا فى النهار فقط ولكن فى الليل ايضا وفى ضوء السراج بين العشائين ، ومن بين تلاميذه فى هذا الدرس ابن [2] الابار ، ويقول عنه صاحب الديباج انه كان من اعظم الناس عناية بالرواية ، ولقاء الشيوخ . اجاز له ابن العربى ، والسلفى وابن بشكوال وابن سعيد بن

---

(1) صفحة 152ـ252 من الجزء الاول من التكملة . وتوفى سنة 517 (الترجمة رقم 813) وانظر صفحة 56 من الديباج المذهب لابن فرحون تجد فيه بعض رجال هذه الاسرة . (2) صفحة 355 من الجزء الاول من التكملة . وصفحة 56 من الديباج . وتوفى سنة 614 هـ . وكذلك صفحة 84 من المعجم .

زرقون وابو عبد الرحيم بن الفرس وابو يوسف بن سعادة وابن حبيش وخلائق . وكان فاضلا، كامل الاشتغال بعلم الحديث حافظا له ، متسع الرواية ، حريصا على الافادة والاستفادة ، وافر الحظ من علم العربية والادب والتاريخ والنسب ، مسع الدين المتين . وكان شهير البيت ، رفيع القدر ، واستقضى بشاطبة وبلنسية فحمدت فيهما سيرته وعرف بالعدالة ، وردع المفسدين » ويقول ابن الابار [1] انه قرأ تاريخ ابن الفرضى وتاريخ ابن بشكوال كليهما على استاذه ابى الخطاب بن واجب.

ومن اساتذة ابن الابار الشهيرين القاضى ابو سليمان داود بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر ابن خلف بن عبد الله بن عبد الرءوف بن حوط الله الانصارى الحارثي . اصله من انده - عمل بلنسية - ثم سكن مالقة . وهو من بيت علم وفضل ايضا ، اخذ عن ابيه ، وعن اخيه ابى محمد [2] عبد الله ، وتجول ببلاد الاندلس للسماع من

---

(1) انظر مقدمة « تكملة الصلة » التى نشرها بن شنب وبسل .

(2) انظر ترجمته فى صفحة 142 من الديباج المذهب.

علمائها . والاخذ عن رواتها . أخذ عن ابى عبد الله بن نوح وغيره فى بلنسية ، وعن ابى بكر بن مغاور فى شاطبة ، وعن ابى القاسم بن حبيش ، وابى بكر بن جمرة فى مرسية ، وعن ابى القاسم بن بشكوال واكثر عنه فى قرطبة وعن غيره بها كذلك ، وعن ابى عبد الله بن زرقون وابى محمد بن جهور فى اشبيلية .

ومن هذه الرحلات العلمية ، وعدد العلماء الذين لقيهم واخذ عنهم تدرك مقدار علمه ، وتبحره فى فنون المعرفة . ويقول عنه ابن الابار: « وكان شديد العناية بالرواية ، وكانت اغلب عليه من الدراية فمال الى الجمع والاكثار ، واخذ عنه الكبار والصغار . وهو واخوه محمد كانا اوسع اهل الاندلس رواية فى وقتهما لا ينازعان فى ذلك ولا يدافعان ، مع الجلالة والعدالة » .

هذا وقد ولى ابن حوط [1] الله القضاء فى عدد من كور اسبانيا ومدنها ، وليه فى الجزيرة الخضراء ، ووليه فى بلنسية [2]

(1) صفحة 63 من الجزء الاول من تكملة الصلة. الترجمة رقم 205.
(2) بعد قاضيها ابى عبد الله بن أصبغ. وبقى بها الى سنة 611، حين صرف عنها بابى القاسم بن نوح ، فذهب الى قضاء مالقة .

سنة 608 هـ. وهنا نشأت العلاقة العلمية بينه وبين ابن الابار ، فقد اختلف اليه طالبا ، وسمع منه الحديث والفقه ، واجاز له غير مرة رواية ما سمعه عنه او قرأه عليه . ويقول ابن الابار: « والف في اسماء شيوخه كتابا قرأته عليه بعد ما كتبته من خطه. ونقلت منه هنا (اى فى تكملة الصلة) ما نسبته اليه . وهم - اى شيوخه - يزيدون على مائتى رجل ، ذكر ان معظم ما اورده (فى معجم شيوخه) من حفظه » .

ولما كان ابن حوط الله قد اقام فى بلنسية ثلاث سنوات فقط من سنة 608 الى سنة 611 فان تلمذة ابن الابار عليه قد اقتصرت على هذه المدة. ولكن يظهر ان التلميذ لازم استاذه طويلا اثناء هذه المدة وافاد كثيرا بدليل انه ينسب اليه الكثير من الروايات والأخبار والاشعار . من ذلك قوله فى الحلة [1] السيراء بعد ان ذكر البيتين :

يهز على الرمح ظبي مهفهف ❀ لعوب بألباب البرية عابث

---

(1) صفحة 165 من *Beitrage zur Geschichte der Westlichen Araber, herausgegeben von Marcus Joseph Müller*

فلو كان رمحا واحداً لاتقيته ❀ ولكنه رمح وثان وثالث

«كذا قرأت فى ديوان اشعارهم ـ أدام الله تأييد[1] امرهم ـ وهما عندى للقاضى أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، انشد نيهما القاضى ابو سليمان داود بن سليمان بن حوط الله الانصارى الحارثى، بمدينة بلنسية وهو اذ ذاك يتولى قضاءها . . الخ» ومن ذلك ايضا قوله فى المعجم[2] «حدثنا القاضى ابو سليمان بن حوط الله ببلنسية حدثنا الحافظ ابو القاسم بشكوال . . .»

«وحدثنا ابو سليمان بن حوط الله حدثنا ابو بكر محمد ابن عبد الرحمن الكتندى . . .».

«حدثنا القاضى ابو سليمان داود بن سليمن بن حوط الله الانصارى ثم الحارثى، وسمعت منه بمدينة بلنسية قال حدثنا ابو محمد عبد الله ابن الحجرى . . .».

«وممن حدثنا عنه . . وابو سليمان بن حوط الله وابو

---

(1) الاشارة قى اشعارهم وتاييدهم الى أمراء الاندلس. (2) صفحة 53، 59، 31، 54.

الخطاب المسمى آنفا . . . »

فهذه كلها ، وامثلة غيرها كثيرة فى التكملة والمعجم والحلة السيراء تدل على مقدار اعتماد ابن الابار العلمى على رواية استاذه وتعلقه به .

ولم يكن لابن حوط الله تاثيره العلمى فقط بل أثر فيه تاثيرا خلقيا غير مباشر تاثير الاستاذ المحبوب المحترم فى نفس تلميذه. وهو يقول عنه : « والغالب على احواله التواضع ، ولين الجانب ، وخفض الجناح ، وحسن السيرة والطريقة ، مع التحرى والنزاهة [1] والعدل والاعتدال » .

ومن شيوخ ابن الابار الذين أخذ عنهم الاخبار وروايـة الحديث والادب الشيخ [2] محمد بن محمد بن سليمان بن محمد ابن عبد العزيز الانصارى النحوى من اهل بلنسية ، ويكنى ابا عبد الله. وقد كان شديد العناية بالسماع والرواية مع الحظ

---

(1) توفى بمالقة وهو على قضائها سحر ليلة السبت ـ وقال ابن الطيلسان صبح يوم السبت ـ السادس من شهر ربيع الاخر سنة 621 ومولده فى اندة سنة 552هـ. (2) صفحة 302 من الجزء الاول من تكملة الصلة. الترجمة رقم 918 . واصله من سرقسطة .

الوافر من المعرفة والدراية . فكانه جمع بين النقل والعقل ، والرواية والدراية . وهذا طراز جديد من علماء ابن الابار لا يعتمد على النقل فقط بل يعمل العقل أيضا. وهو يقول عنه انه « يتحقق بعلم اللسان ، ويتقدم فى العربية، عاكفا على اقرائها والتعليم بها ، قائما على كتبها ، بصيرا بصناعة الحديث ، مكبا عليها . قرأ وأقرأ (جمعا) كبيرا، وافاد واستفاد كثيرا » . أما نصيب ابن الابار من التتلمذ عليه فيقول فيه : « وقد نقلت من خطه ما نسبته اليه فى هذا الكتاب (يعنى تكملة الصلة) ، واجاز لي بلفظه. وسمعت منه بعض نظمه ، وبقراءته على شيخنا ابى الخطاب بن واجب كثيرا . وكان شاعرا محمودا » .

فكأن ابن الابار كان يتعلم ، الى حفظ القرآن بالقراءات السبع ورواياتها، الحديث والتاريخ والاخبار والادب. كان يتعلم هذا حتى قبل أن يجاوز من السن الخامسة عشرة . دليلنا على ذلك ان استاذه محمد بن سليمان بن عبد العزيز الانصارى النحوى هذا توفى فى ربيع الاول سنة 610 هـ، أي عند ما بلغ ابن الابار نهاية الخامسة عشرة من سنه . وكان يتتلمذ

عليه قبل وفاته .

ولم يكتف ابن الابار بقراءاته القرآن وأخذه رواياته بمن ذكرنا من الاساتذة بل فعل كما يفعل غيره من التلامذة فى عهده من قراءة القرآن أو تلاوته على أكثر من شيخ . ومن هؤلاء الذين أخذ عنهم قراءة القرآن وسمع منهم ابو عبد الله محمد [1] ابن عبد العزيز بن سعادة . كان من أهل شاطبة ، ولكنه وفد الى بلنسية فى اول شوال سنة 610 . وكان ممن اخذ القراءات عن ابى الحسن [2] بن هذيل ومن . . . وسمع من ابى عبد الله بن سعادة وابى حفص بن واجب وهؤلاء من أئمة العلماء فى روايات القرآن وصناعة الحديث . ويقول عنه ابن الابار : فلما جاء الى بلنسية « اخذت عنه» وسمعت منه ، واجاز لى ما

---

(1) صفحة 313-314 من الجزء الاول من التكملة، رقم الترجمة 938.

(2) هو على بن محمد بن هذيل البلنسى . كان منقطع القرين فى الفضل والدين والورع وكان اذا خرج لضيعته تبعه الطلبة من قارئ وسامع للحديث . وهو آخر من حدث عن ابى داود بالاندلس انتفع الناس به طويلا ورحلوا اليه . واسمع ببلنسية نيفا وستين سنة وتوفى عن نيف وتسعين فى رجب سنة 564هـ. (صفحة 199 الديباج المذهب) .

رواه عند ذلك وقبله. وكان شيخنا ابو الخطاب بن واجب يثق به ويثني عليه، ويقول بفضله، وتقدم صحبته لابى الحسن بن هذيل، وتميزه من الشيوخ ». وتوفى بشاطبة يوم الثلاثاء التاسع من شوال سنة 614 عن سن عالية بلغت المائة، وهو يتمتع بجوارحه كلها .

وممن اخذ عنهم ابن الابار اللغة والنحو والاداب الشيخ محمد بن ابراهيم بن مسلم البكرى ويكنى ابا عبد الله . وهو يقول عنه: انه من أهل بلنسية وقد «سمع من شيخنا ابى عبد الله بن نوح قديما ولازمه . وأخذ عنه العربية والاداب ، وأقرأ بها . وكان مقدما، حسن التعليم . وهو احد من أخذتها عنه. قرات عليه جملة من اول [1] الايضاح لابى علي الفارسى وناولنيه مرارا، وكان من اهل الديانة والنزاهة والانقباض [2]» وتوفى سنة 627 .

---

(1) هو كتاب فى النحو الفه ابو علي الحسن بن علي بن عبد الغفار الفارسى. وهو تلميذ ابن السراج وابن الزجاج امه عربيه وأبوه فارسى ولد سنة 288 (900م) ومات ببغداد سنة 377(987م) ومن مؤلفاته التكملة.
(2) صفحة 337 من الجزء الاول من التكملة. الترجمة رقم 986

ولا يهمل ابن الابار حين يترجم لاحد من شيوخه ذكر صفاته الخلقية والدينية، لانها كانت جزءا من مكونات شخصية العالم فى ذلك الوقت، ومن العناصر الضرورية فى العالم الفاضل الصحيح، المناصر التى تجذب اليه الطلبة . وتكسب احترام الناس وتقديرهم، ومن ذكره لهذه الصفات نعرف نحن نوع الاساتذة الذين تتلمذ عليهم .

وثمة عالم لغوى، وكاتب أديب، وفقيه محدث، وقاض بارع، هو الشيخ [1] نذير بن وهب بن لب بن عبد الملك بن أحمد بن محمد . . . بن نذير الفهرى. ويكنى ابا عامر. وقد أخذ القراءات [2] عن ابيه ابى العطاء، وسمع منه واكثر عنه، ومن ابى بكر بن جزى ومن . . واخذ العربية والادب عن ابى محمد بن عبدون. وكتب اليه من اهل المشرق جلة من العلماء الافاضل . ويصفه ابن الابار فيقول :

« وعنى بعقد [3] الشروط، فلم يكن احد يدانيه فى ذلك

---

(1) صفحة 124-425 من الجزء الثانى من التكملة . رقم الترجمة 1217
(2) هذا يدل على انه كان من بيت علم . (3) كانت شروط البيع والهبة والوصية والايجار والوقف الخ. تكتب وفقا لقواعد الشريعة الاسلامية =

حسن مأخذ، وسهولة الفاظ، وبراعة مساق، مع المشاركة فى الفقه، وكان قائما على الكامل للمبرد، كثيرا ما سمعته يورد اشعاره، ويسرد من حفظه اخباره. وولى قضاء بعض الكور. وحدث بآخرة من عمره، فأخذ عنه جماعة من اصحابنا (زملائنا فى الدرس) وسمعت منه كثيرا، وأجاز لي لفظا وخطا، هذه كانت صلة ابن الابار بأستاذه. وواضح انه افاد منه فى اللغة والادب أكثر مما أفاد فى أية مادة أخرى.

وقد بقى هذا الاستاذ ببلنسية حتى تغلب عليها الروم، فقصد دانية، وولى قضاءها الى ان توفى بها فى العاشرة الوسط لشعبان سنة 636 وابن الابار [1] حينئذ بتونس المدينة عند توجيهه اليها.

وممن أخذ عنهم الاخبار والتاريخ والاشعار [2] الشيخ ابو

= وكان يقوم بكتابتها عالم فقيه قدير في اللغة وعلوم الدين.

(1) يقول ابن الابار فى هذا الشيخ وقد بقى قاضيا على دانية «الى ان توفى بها فى العشر الوسط لشعبان سنة 636 هـ. بعد ستة أشهر من الحادثة على بلنسية. وانا حينئذ فى حضرة تونس فى توجيهى اليها» اى عند ما وجهه اليها الامير زيان ليستصرخ الامير زكريا الحفصى.

(2) صفحة 517 من الجزء الثانى من تكملة الصلة. الترجمة رقم 1453.

محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن ابى يحيى بن محمد بن مطروح التجيبي. وكان من اهل بلنسية وأصله من سرقسطة . وهو من بيت علم وفضل وصلاح .

وقد تتلمذ هذا الشيخ على جملة من العلماء النابهين فى عصره ، فأخذ القراءات عن ابيه وابى العطاء بن نذير .... وابى عبد الله بن نوح وسمع منهم ، واخذ القراءات والعربية والاداب عن ابى محمد بن حوط الله وابى عبد الله بن نوح ولازمه طويلا، وعن ابى ذر الخسنى وغيرهم .

ولى القضاء فى عدد من كور بلنسية وغيرها وولى قضاء دانية بآخرة من عمره. ثم صرف عنها بتولية ابن الابار قضاءها فى رمضان سنة 633 هـ وأعيد اليها بعد ذلك لما استعفى ابن الابار من هذا المنصب .

ويقول عنه المترجم: «وكان فقيها عارفا بالاحكام، عاكفا على عقد الشروط ، من أهل الشورى والفتيا ـ اديبا ـ شاعرا مقدما، فكها، صدوقا فى روايته . سمعت منه حكايات واخباراً وانشدنى لنفسه ولغيره كثيرا. وأجاز لى غير مرة، لفظا جميع

ما رواه، وأنشأه ».

هذا وقد توفى الشيخ عند المغرب من ليلة يوم الجمعة التاسع لذى القعدة سنة 635هـ. والروم محاصرون [1] بلنسية.

فهذا مصدر آخر من مصادر تأديب ابن الابار وتثقيفه، وتنشئته فى الاداب واللغة والكتابة. وكان هذا النوع من التنشئة ضروريا لمن تولى بعد ذلك كتابة الرسائل لعدد من الملوك فباتصاله بهذا الضرب من الادباء والشعراء، ورواة الادب والظرفاء استطاع ابن الابار ان يتذوق الادب، وينمى ملكته فيه.

والواقع ان ابن الابار لم ينقطع عن التلمذة على خيرة العلماء والادباء، حتى فى سن الاربعين. يذكر هذا ويسجله عند ما يترجم [2] الحسن بن محمد بن الحسن بن فاتح من اهل بلنسية، المكنى ابا على، والمعروف بالشعار. وهو يقول عنه انه اخذ القراءات السبع عن ابى السن بن النعمة، وعن

---

(1) ويقول ابن الابار: ودفن بمقبرة باب الحنش لصلاة ظهر الجمعة، قبل امتناع الدفن بخارجها. (2) صفحة 23 من الجزء الاول من التكملة. رقم الترجمة 54. وتوفى يوم السبت يوم عيد الاضحى من سنة 635. ودفن بداخل المدينة.

ابى محمد أيوب بن غالب المكتب ، وسمع من ابى العطا بن نذير صحيح البخارى ، ومن ابى عبد الله بن نوح كتاب السيرة لابن اسحاق . ورحل حاجا ، فادى الفريضة ، وانصرف فاحترف التجارة . ، وقعد لاقراء القرآن بآخرة من عمره . فأخذ عنه . وسمعت أنا منه فى منتصف رمضان سنة 635 هـ. ـ اثر منازلة الروم بلنسية بعشرة ايام ـ حكايات واشعارا . واجاز لى بلفظه ما رواه ، وهنا يجد القارىء كيف ان حرص ابن الابار على العلم وزيادة معارفه قد دفعه الى ان يجلس لسماع الحكايات والاشعار ، ويطلب الاجازة من أستاذه ، فى ساعة عصيبة من ساعات بلنسية ، ساعة هجوم العدو عليها .

ومن شيوخ ابن الابار ابو الحسن على بن محمد المخرومي البلنسى ، ويعرف بابن حريق . وكان شاعرا مجيدا للوصف والتهكم ومات سنة 622 . وقد ذكره ابن الابار ـ عرضا ـ على انه شيخه فى تحفة القادم . واقتبس منها المقرى . وهو يروى لنا فى نفح الطيب [1] عن ابن الابار قوله :

---

(1) صفحة 458 من الجزء الثانى من نفح الطيب ، طبعة ليدن ، =

« وما احسن قول شيخنا ابى الحسن بن حريق فى هذا المعنى (يريد وصف اسطول) من قصيد أنشدنيه :

وكأنما سكن الاراقم جوفها ❀ من عهد نوح خشية الطوفان

فاذا رأين الماء يطفح نضنضت ❀ من كل خرق حية بلسان

ولما كان ابن حريق شاعرا أديبا فمن الطبيعى ان يتتلمذ عليه ابن الابار فى مادة الادب والشعر ، ويحفظ عنه ويروى .

وفى مقدمة شيوخ ابن الابار العلماء الصالحين المجاهدين الحافظ ابو الربيع سليمان[1] بن موسى بن سالم بن حسان الحميدى الكلاعى من اهل بلنسية . وهو شيخه الذى يحمل له كل ولاء وحب وتقدير ، شيخه الذى لايذكر اسمه الا ويقرن به ، لما له من الفضل العلمى والاخلاقى عليه . وقد ترجمه عدد من المؤرخين ومنهم ابن الابار نفسه قال عنه: انه على اتم العناية بالتقييد والرواية ، «وكان اماما فى صناعة الحديث ، بصيرا به ، حافظا حافلا ، عارفا بالجرح والتعديل ، ذاكرا

= ونشرة دوزى وآخرين ، انظر كذلك الجزء الاول صفحة 111 والجزء الثانى صفحة 459 ، 999 .

(1) صفحة 708 من الجزء الثانى من تكملة الصلة. الترجمة رقم 1991

المواليد والوفيات ، وكتب الكثير ، وكان حسن الخط ، لانظير له فى الاتقان والضبط ، مع الاستبحار فى الادب ، والاشتهار بالبلاغة ، فردا فى انشاء الرسائل ، مجيدا فى النظم ، خطيبا فصيحا ، مفوها مدركا ، حسن السرد والمساق لما يقوله . وكان المتكلم عن الملوك فى مجالسهم ، والمبين عنهم لما يريدونه على المنابر فى المحافل . ولى خطابة بلنسية فى اوقات . وله تصانيف مفيدة فى الفنون ، وله كتاب الاكتفاء مما تضمنه من مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتصانيف سوى ذلك كثيرة فى الحديث والادب والخطب. واليه كانت الرحلة فى عصره للاخذ عنه . اخذت عنه كثيرا ، وانتفعت به فى الحديث كل الانتفاع . وحضنى على هذا التاريخ (التكملة) ، وامدنى من تقييداته وظرفه بما شحنته . مولده فى رمضان سنة 565 . واستشهد بكائنة أنيشة على ثلاثة فراسخ من بلنسية مقبلا غير مدبر ، فى العشرين من ذى الحجة سنة 624 هـ . وكان دائما يحدثنا ان السبعين منتهى عمره ، وقد رثاه تلميذه ابن الابار بقصيدة طويلة منها !

ألما باشلاء العلى والمكارم ❀ تقد باطراف القنا والصوارم

وهى طويلة كما رثاه غيره ومنهم الفقيه الكاتب[1] ابو المطرف احمد بن عبد الله بن عميرة المخزومى .

ونحن نجد فيما كتبه ابن الابار اشارات عارضة لرجال تتلمذ عليهم دون ان يترجم لهم فى تفصيل وتوسع . ففى التكملة [2] مثلا نجده يترجم واجب بن محمد بن عمر بن محمد ابن واجب بن عمر ويقول عنه : « سمع من ابى هذيل وابن سعادة وابن النعمة . وولى القضاء باماكن . سمعت منه واجاز لى . توفى سنة 610 هـ .

ونحن نعثر عرضا فى المعجم [3] عند ترجمة « احمد بن محمد بن عبد الله الانصارى » انه روى عن جماعة منهم ابو بكر بن العربى ، واجاز له ابو علي « ذكر ذلك ابو الخطاب عمر بن الحسن الكلبى شيخنا » . فوصف ابى الخطاب هذا

---

(1) صفحة 586 من الجزء الثانى من نفح الطيب طبعة مصر (2) صفحة 719 من الجزء الثانى من تكملة الصلة . الترجمة رقم 2051 . ولاشك ان واجب هذا المترجم له من اسرة واجب القيسية البلنسية الشهيرة .
(3) صفحة 64.

بكلمة « شيخنا » يدل على صلة ابن الابار به صلة التلمذة . فاذا بحثنا عن ترجمة هذا الشيخ وجدنا انه « عمر بن حسن بن على بن محمد بن فرج الكلبى ابو الفضل، الدانى الاصل السبتى، ثم كنى نفسه ابا الخطاب » وانه كان « بصيرا بالحديث معتنيا بتقييده ، مكباعلى سماعه ، حسن الخط ، معروفا بالضبط، له حظ وافر من اللغة ومشاركة فى العربية وسواها . ولى قضاء دانية مرتين . . . » ثم رحل الى تونس وحدث فيها سنة595 . ثم حج وكتب بالمشرق عن جماعة باصبهان ونيسابور. وعاد الى مصر فاستأدبه الملك العادل لابنه وولى عهد محمد ـ الذى صار بعد، الملك الكامل ـ واسكنه القاهرة . . وله تواليف منها كتاب « النص المبين فى المفاضلة بين اهل صفين » كتب الي بالاجازة سنة ثلاث عشرة وستمائة، ومات فى ربيع[1] الاول سنة 633هـ:

فهذا نص صريح على صلة ابن الابار العلمية به ، وهى صلة لاتدل على انه تتلمذ عليه مباشرة ، ولكنها تدل على انه قرأ مؤلفاته واستجازه فى روايتها فاجازه .

---

(1) صفحة 660 من الجزء الاول من تكملة الصلة .

ومن الشيوخ الذين تاثر بهم ابن الابار علما وخلقا الشيخ الزاهد [1] محمد بن عبد الله بن محمد بن خلف بن على بن قاسم الانصارى . وكان من اهل بلنسية ، ومن بيت علم وفضل.

سمع من ابى العطا بن نذير ، وابى عبد الله بن نوح ، واخذعنه القراءات والعربية والآداب، ولازمه واختص به ايضا. وسمع من ابى الخطاب بن واجب . وعنى بعقد الشروط ، ثم رغب عن ذلك وزهد فى الدنيا ، واعتزل الناس ، وأقبل على النظر فى العلم . وكان له تحقيق بالتفسير وقيام عليه . وقعد لذلك بجامع بلنسية .

وكان هذا الشيخ يعلم فى منزله كعادة كثير من الشيوخ فى بلاد المسلمين . ظلت هذه العادة متبعة حتى اشرفت الحكومات على التعليم، فخصصت لهمعاهد غير بيوت الاساتذة . ولا زالت هذه العادة متبعة فى غير مدارس الحكومة بالمغرب ، والسودان ونيجيريا، وفارس، والحجاز. يذهب الطالب الى الشيخ فى منزله لتلقى العلم . وفى هذا تكريم للشيخ واراحة له وبخاصة اذاكان

(1) صفحة 354-355 من الجزء الاول من تكملة الصلة، رقم الترجمة 1021

مسنا . نعم كانت المساجد معاهد العلم ، ولكن بعض الشيوخ كانوا يؤثرون منازلهم لما فيها من ضمان عدم التعارض بين وقت العلم وصلاة الناس ، وكان معلمو القرآن يتخذون من منازلهم مكانا لتعليمه ، او حجرة متصلة بالمسجد ، صيانة لمكان العبادة أن يتسخ باستعمال الاطفال اياه . ومن الشيوخ من يتخذ خلوته فى منزله فكان يوثر لهذا ان يكون تلاميذه على قرب منه ، يشرف عليهم اذا فرغ من خلوته ، وينصرف اليها اذا فرغ منهم [1] او اذا شاء.

ويقول ابن الابار عن استاذه هذا انه « اخذ عنه القراءات بمنزله جماعة . وطريقة التصوف كانت اغلب عليه . والف كتاب نسيم الصبا » فى الوعظ على طريقة ابن الجوزي . قرأ علي بلفظه مواضع منه ، وكتاب « بغية النفوس الذكية فى الخطب الوعظية » من انشائه . كتبته عنه . وسمعت منه غير ذلك ، وأجاز لى . وصحبته طويلا . وكان يحدثنى باصطحابه مع ابى - رحمه الله - فى السماع من أبى عبد الله بن نوح ، ويرعى ذلك لى . وقد سمع بقراءتى كثيرا مما أخذت بجامع

(1) انظر كتاب التربية فى السودان للمؤلف، باب «الخلوة ووظيفتها»

بالنسبة بين العشائين - لضوء السراج - عن ابى الخطاب احمد ابن واجب بجامع الترمذى وغيره ». والعشاءان المغرب والعشاء.

وهذا الشيخ ضرب من العلماء الصالحين الذين غلبت عليهم روح التقوى والزهد. ولا شك كان لهذه الروح أثرها الخلقى فى حياة المترجم. وكان من عطف هذا الشيخ على تلميذه ابن الابار انه كان ينظر اليه كأنه ابنه، لانه زامل والده أثناء السماع من ابى عبد الله بن نوح.

ومن الشيوخ الذين افاد منهم ابن الابار، وارتبط بهم برباط المصاهرة الشيخ « حسن بن حسن بن احمد بن محمد بن موسى بن سعيد بن سعود الانصارى. ويعرف بابن الوزير وغلبت عليه الشهرة بابن البطرنى. ويكنى ابا عبد الله، ويقول عنه ابن الابار: «انه كان عالما بالقراءات، وعنى بعقد الشروط. وكان له فيها نفوذ، وبها معرفة، مع براعة الخط، وحسن الوراقة. وولى قضاء بعض الكور. وشارك فى الكتابة، سمعت منه المعجم فى مشيخة ابى علي الصدفى القاضى ابى الفضل بن عياض. قرأ جميعه علي بلفظه، وسوى ذلك.

وانتقل معى - وكان صهرى - الى مدينة تونس . وبها توفى بين صلاتى الظهر والعصر من يوم الاربعاء الرابع لشهر ربيع الاخر سنة 637 . . . ومولده ببلنسية سنة 573 هـ » .

ومن الحق ان نقرر هنا اننا لانستطيع ان نستقصى جميع الشيوخ الذين تتلمذ عليهم ابن الابار ، ومن اجازوه كتابة او لفظا ، ذلك لانه لم يذكر لنا هو جميع مشيخته نصا فى (1) مؤلفاته ، أو لعله ذكرهم فيما لم نعثر عليه منها . وكل من ذكرناهم هنا تلمسناهم من مؤلفاته عند ما ترجم حياتهم عرضا كترجمة حيوات غيرهم من الشيوخ العلماء . او مما ذكره المؤرخون عنه . وثمة اساتذة آخرون نعثر عليهم مصادفة ولا نجد لهم ذكرا كثيرا . ومن هؤلاء حسان بن عبد الله بن محمد بن هشام بن عبد الله بن حيان بن فرحون بن حيان الانصارى

---

(1) من ذلك انه ذكر عرضا شيخين تتلمذ عليهما وهما : محمد بن احمد ابن عطية بن موسى بن عبد العزيز الانصارى ، ذكره فى صفحة 332 من المعجم ورقم الترجمة 974 ، ومحمد بن احمد بن محمد بن اسماعيل بن سلمون من اهل بلنسية ، ذكره فى صفحة 333 من المعجم ورقم الترجمة 976 .

الاوسى من اهل بلنسية . وعن حياته يقول ابن الابار :

« وقد أقرأ وقتا بجامع بلنسية . نصبه لذلك القاضى ابو عبد الله بن حميد . لقيته وسمعت مذاكرته وتوفى سنة 609 » .

والغالب ان هذا اللقاء وهذا السماع لم يكن طويلا ، ولم يكن على سبيل التلمذة ، وانما كان مرة أو مرات معدودة ، كما كانت الحال من حضور الرجل محاضرة غيره من العلماء ، وجلوسه فى حلقة تلامذتهم ، حتى ولو كان المستمع عالما .

وممن ذكرهم ابن الابار عرضا ضمن شيوخه ولم اعثر على ترجمتهم الشيخ ابو محمد بن غليون . ذكره عند ترجمته الشيخ محمد بن حرث بن محمد ابن فيره بن حيون بن سكرة الصدفى من أسرة ابى على الصدفى وتلامذته (1) فقد قال عن هذا المترجم: « وكان شيخنا ابو محمد بن غليون يثنى عليه ، ويصفه بالصلاح والخير ، والاكباب على تلاوة القرآن . حدثت بذلك عنه »

فعبارة « شيخنا » و « حدثت بذلك عنه » تدل على تتلمذ ابن الابار على ابن غليون .

---

(1) صفحة 222-223 من الجزء الاول من التكملة رقم الترجمة 743

وبعد، فالدارس لتراجم هؤلاء الشيوخ - شيوخ ابن الابار - يجد انهم جميعا ممن عاشوا فى بلنسية اثناء تلمذته عليهم . ونحن لا يسعنا الا ان نستنبط من هذا ان ابن الابار تلقى علومه ودراساته جميعها فى بلنسية وعلى شيوخها ، وانه لم يرتحل الى بلدة غيرها طلبا للعلم كما كانت العادة فى ذلك الوقت . ولا ينقص هذا من قدره العلمى ، وانما اردنا تسجيل هذه الحقيقة التاريخية المستنبطة ليكون القارىء صورة واضحة عن المترجم .

نعم نعثر فى فوات الوفيات - عند ترجمته - على عبارة: « وجال فى الاندلس » مما قد يوهم ان هذا الجولان كان طلبا للعلم . ولكنها عبارة لاتكفى كما وردت لاستنباط هذه النتيجة ، كما اننا لانعثر فى مصادر اخرى على ما يؤيدها .

بهذا النوع من التربية التى وصفناها، وبهذه التنشئة على الرجال العلماء الفضلاء الصالحين تهيأ ابن الابار لحياة علمية تناسب ثقافته وتكوينه ، واستحق ان يقال عنه انه « عنى بالحديث . . . وكان بصيرا بالرجال ، عالما بالتاريخ ، اماما فى العربية ، فقيها ، مفتيا ، اخباريا ، فصيحا ، له يد فى

البلاغة [1] والانشاء ».

فاذا انتقلنا الى حياته العملية صعب علينا ان نحدد تحديدا دقيقا السنة التى بدأ فيها يتناول عملا من الاعمال الرسمية ذات الوظيفة ، الكتابة أو القضاء . وكل من كتب عنه من المؤرخين ومؤلفى التراجم يقول انه كتب عن السيد أبى عبد الله بن ابى حفص الموحدى، وعن ابنه السيد ابى زيد بعده ثم عن الرئيس ابى جميل زيان بن مدافع، فلما سقطت بلنسية هاجر الى تونس ولقى حظوة لدى سلطانها الى ان افل نجمه كما سنعرض لهذا بايضاح . ولكنا لا نستطيع ان نقول متى بدأ ابن الابار يعمل كاتبا عند السيد [2] ابى عبد الله الموحدى . نعم نعرف أن هذا السيد ولى امارة بلنسية فى سنة 582 هـ . بعد وفاة الرئيس ابى الحجاج يوسف بن مردنيش، غير ان ابن الابار لم يكن قد ولد فى تلك السنة . ونعرف كذلك ان السيد ابا زيد قد خرج من بلنسية وأوى الى النصارى فى سنة 626 هـ . واذاً فلا بد ان

---

(1) صفحة 226 من الجزء الثانى من فوات الوفيات .

(2) لقب «السيد» يطلق على امراء الموحدين أما امراء بنى حفص فيطلق عليهم لقب « الشيخ » .

تكون كتابة ابن الابار لهذين الواليين الموحدين قبل سنة 626هـ. وفى سن تسمح له بمزاولة هذه المهنة لدى الامراء فاذا فرضنا سنة 615 هـ . باعتبارها السنة الجائزة نظريا لبدء ابن الابار حياته الكتابية الديوانية، كان هذا الفرض مبنيا على ان عمره فى تلك السنة كان قد صار عشرين عاما، وهو عمر يمثل بدء النضج الاجتماعى والعلمى . ومن الجائز ان يكون قد بدأ هذه الحياة الادبية الرسمية بعد تلك السنة ، ولكن فى عهد الامير أبى عبد الله بن ابى حفص .

ومهما كانت السنة التى بدأ فيها يكتب لاول هذين الاميرين الموحدين فليست لدينا صورة مخطوطة من الرسائل التى كتبها عنهما ، وكل ما ورد فى كتب التاريخ ان ابن الابار لازم مولاه السيد ابا زيد ، ثم دخل معه دار الحرب حين نزع الى دين [1] النصرانية، ورجع عنه قبل ان ياخذ به، . وليس المجال هنا مجال مناقشة نزوع السيد ابى زيد الى النصرانية، واعتناق هذا الدين او عدم اعتناقه . فليست لدينا ادلة كافية مرجحة فى

(1) صفحة 205 وما بعدها من الجزء الثالث من أزهار الرياض .

هذا الشان [1] ، ولكن من الواضح ان ابن الابار ترك مولاه ورجع الى بلنسية. فهل عمل ابن الابار بعد عودته مباشرة عند الوالى الجديد ابى جميل زيان بن مدافع بن مردنيش ، وكتب له ، او مضت مدة قبل ان يصير كاتبه ؟ هذا سؤال لا نستطيع الاجابة عنه. نعم من الثابت ان ابا جميل زيان بن مدافع ولى امر بلنسية من سنة 626هـ. الى ان سقطت فى يد الروم سنة 636 هـ ، ولكن من الثابت ايضا ان ابن الابار ولى قضاء دانية فى عهد هذا الرئيس أبى جميل . فقد ذكر لنا ابن الابار عرضا عند ترجمته [2] عبد الله بن محمد بن عبد الله بن ابى يحيى بن محمد بن مطروح التجيبى من اهل بلنسية انه ولى « بآخرة من عمره قضاء دانية . ثم صرف بى عند ما قلدت ذلك فى شهر رمضان سنة 633 هـ. ثم أعيد اليها بعد ذلك لما استعفيت منه» . فهذه عبارة صريحة فى ان ابن الابار ولى القضاء فى عهد الرئيس

---

(1) يقول ابن الخطيب فى كتابه « اعمال الاعلام » صفحة 313: ان السيد ابا زيد بن عبد الرحمن بن يعقوب والى بلنسية خرج منها واعتصم ببعض معاقلها ليكون اقدر على ضبط أمره، فامتنعت عليه المدينة، والجاه الاضطرار الى اللحاق بصاحب ارغون . (2) صفحة 517 من الجزء الثانى من التكملة، الترجمة رقم 1453 .

أبى جميل زيان بن مدافع، فهل كان قبل هذه التولية يعمل كاتبا عند هذا الرئيس اولا ؟ هذا سؤال لا نستطيع الاجابة عنه كذلك . ولكنا واثقون انه صار كاتبا للرئيس أبى جميل بعد استعفائه من القضاء . وقد ظل عنده الى ان سقطت بلنسية .

ولا بد أن وصل ابن الابار عند الرئيس زيان بن مدافع مرتبة الحظوة والتقدير الرفيع والثقة بكفايته الادبية لدرجة جعلته يبعث به رئيسا للجماعة التى أوفدها ابن مدافع من بلنسية لبيعة الامير ابى زكريا يحيى سلطان افريقية ، واستصراخه لانقاذ المدينة من خطر الروم .

ولعله يجدر بنا قبل ان نصف سفارة ابن الابار الى أمير افريقية الحفصى ان نذكر ان دولة الموحدين فى ذلك الوقت كانت قد آلت الى الضعف والانهيار التدريجى ، وان نفوذها فى الاندلس كان قد صار الى تقلص [1] على حين اخذت دولة بنى حفص فى الظهور والقوة . ويقول لنا مؤلف « الحلل الموشية فى ذكر

---

(1) كان امراء الاندلس المحليون يحاربون امراء الاندلس من الموحدين ويقاومون نفوذهم. فكان بين الطائفتين تنافس وحرب وعدم تعاون.

الاخبار المراكشية » عند ترجمته الخليفة ابا محمد عبد الله العادل ابن يعقوب المنصور الموحدى (621 ـ 624 هـ.) انه كان عالما اديبا فصيحا ذا راى وحزم ، «الا ان دولته كانت مزاحمة بابى زكريا يحيى بن الناصر . فلم يتأت له معه [1] تمهيد البتة ، واذاً فلم تكن ثمة فائدة من الاستصراخ بالموحدين.

ويقول ابن خلدون انه[2]« لما استقل ابو جميل زيان بن ابى الحملات مدافع بن ابى الحجاج بن سعد بن مردنيش بملك بلنسية، وغلب عليها السيد ابو زيد بن ابى حفص، وذلك عند خمود ريح بنى عبد المؤمن بالاندلس، وخروج ابن هود، وثورة ابن الاحمر بأرجونه، واضطراب الاندلس بالفتنة، وقد أسف الطاغية الى ثغور الاندلس من كل جانب، وزحف ملك أرغون الى بلنسية فحاصرها، كانت للعدو سنة ثلاث وثلاثين (وستمائة هجرية) سبع محلات لحصار المسلمين . . . . ثم تملك طاغية قشتالة مدينة قرطبة ، وظفر طاغية أرغون بكثير من حصون

---

(1) صفحة 136 من الكتاب المذكور . (2) صفحة 283 من الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون .

بلنسية ... وبنى حصن أنيشه لحصار بلنسية، وانزل بها عسكره، وانصرف . فاعتزم زيان ابن مردنيش على غزو من بقى من عسكره ، وانتفر أهل شاطبة وشقر، وزحف اليهم . فانكشف المسلمون ، وأصيب اكثرهم ، واستشهد أبو الربيع بن سالم شيخ المحدثين بالاندلس . وكان يوما عظيما ، وعنوانا على أخذ بلنسية . ثم ترددت عليها سرايا العدو . ثم زحف اليها طاغية ارغون فى رمضان سنة خمس وثلاثين . فحاصرها ، واستبلغ فى نكايتها . وكان بنو عبد المؤمن بمراكش قد فشل ريحهم ، وظهر أمر بنى حفص بافريقية . فأمل ابن مردنيش وأهل شرق الاندلس الامير أبا زكريا للكرة . وبعثوا اليه بيعتهم ، وأوفد عليه ابن مردنيش كاتبه الفقيه أبا عبد الله بن الابار صريخاً، فوفد [1] وأدى بيعتهم فى يوم مشهود بالحضرة (يعنى تونس) وأنشد فى المحفل قصيدته السينية يستصرخه فيها للمسلمين ... « الخ » .

---

(1) فى سلخ شعبان سنة 635 (انظر صفحة 28 من الجزء الاول من التكملة) .

فبادر السلطان ابو زكريا باغاثتهم ، وشحن الاساطيل بالمدد اليهم ، من المال والاقوات والكساء . فوجدهم في عسرة الحصار الى ان تغلب الطاغية على[1] بلنسية ، ويسمى مؤرخو العرب هذا الطاغية جاتم[2] أو جاتمه وهو « *Jaime d' Aragon* » . ويسميه لسان الدين بن الخطيب « دون جايمش » .

ويحدثنا ابن الابار في الحلة[3] السيراء عن بلنسية فيقول : « ثم ملكها الروم ثانية بعد ان حاصرها الطاغية جاتم البرشلوني من يوم الخميس الخامس من شهر رمضان سنة 635 الى يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة 636 وفي هذا العام خرج أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد الجذامي من المدينة ، وهو يومئذ اميرها - في اهل بيته ، ووجوه الطلبة والجند - واقبل الطاغية وقد تزيا باحسن زي ، في عظماء قومه ،

---

(1) صفحة 205 من الجزء الثالث من ازهار الرياض في أخبار عياض .

(2) هو *Jacques 1er le conquérant* حياته من 1213 - 1276م انظر صفحة 390 من اعمال الاعلام.

(3) صفحة 190 من كتاب - *Notices Sur quelque Manuscrits Arabes* وهو الذي ألفه دوزي ونشر فيه جزءا من الحلة السيراء.

من حيث نزل بالرصافة اول هذه المنازلة . فتلاقيا بالولجة ، واتفقا على ان يتسلم الطاغية البلد سلما لعشرين يوما ، ينتقل اهله اثناءها بأموالهم وأسبابهم . وحضرت ذلك كله . وتوليت العقد عن ابى جميل فى ذلك . وابتدئ بضعفة الناس فسيروا فى البحر الى نواحى دانية . واتصل انتقال سائرهم براً وبحراً. وصبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر المذكور كان خروج ابى جميل بأهله من القصر فى طائفة يسيرة اقامت معه . وعند ذلك استولى عليها الروم » .

فهذا وصف تاريخى لخروج بلنسية من حوزة المسلمين الى حوزة الروم . ولم تستطع أساطيل ابى زكريا سلطان افريقية انقاذها لانها وصلت متأخرة ولان قوة الروم كانت اكثر تفوقا من قوة المسلمين .

ويقول لسان الدين بن الخطيب عند ذكر استصراخ مسلمى بلنسية الامير ابا زكريا : « ولم يصل جوابه وامداده الا والطاغية قد نازل بلنسية . وذلك يوم الخميس خامس رمضان من سنة 635 . وواصل جاتمه ملك ارغون منازلة بلنسية

ورميها بالمجانيق ، وشدة القتال . وما زال المسلمون تنقص أعدادهم ، والنصارى تتوارد أمدادهم ، الى ان نفذت الاقوات ، واستولى الجوع ، وضعفت القوى ، وأكلت الجلود والرقوق ، وبلغ الكتاب [1] أجله ».

وفى ذلك يقول القاضى ابو المطرف بن عميرة مخاطبا ابن الابار [2] :

ما بال دمعك لاينى مدراره ... أم ما لقلبك لايقر قراره

أللوعة بين الضلوع لظاعن ... سارت ركائبه ، وشطت داره

أم للشباب تقاذفت أوطانه ... بعد الدنو ، وأخلفت أوطاره

أم للزمان أتى بخطب فادح ... من مثل حادثه خلت أعصاره

بحر من الاشجان عب عبابه ... وارتج ما بين الحشا زخاره

فى كل قلب منه وجد عنده ... اسف طويل ليس تخبو ناره

أما بلنسية فمثوى كافر ... حفت به فى عقرها كفاره

زرع من المكروه حل حصاده ... بين العداة غداة لج حصاره

---

(1) صفحة 313- 314 من أعمال الاعلام

(2) يقصد به محمد بن الابار

وعزيمة الشرك حمجم بالهدى أنصارها اذ خانه انصاره

قل كيف تثبت بعد تمزيق العدى آثاره ، أو كيف يدرك ثاره ؟

ما كان ذاك المصر الا جنة الحسن تجرى تحته انهاره

طابت بطيب نهاره آصاله وتعطرت بنسيمه اسحاره

وتالقت اوقاته وتفسحت ارجاؤه ، وتفتحت انواره

اما السرار فقد عداه ، وهل سوى قمر الزمان يزول عنه سراره

قد كان يشرق بالهداية ليله فالآن أظلم بالظلام نهاره

ودجا به ليل الخطوب فصبحه اعيى على ابصارنا اسفاره

ايه ابا [1] عبد الاله وانه نبأ يؤجج لوعتى تذكاره

عاطيتنى ذكر الجلاء وانه لجلاء انسى اذ اتت اخباره

وقدحت زند أسى له بين الحشا عمل تلاقى مرخه وعفاره

ولقد نطقت بمقتضى الرد الذى راقت نضارته ، وطاب نضاره

ولم يكن لابن الابار ان يبقى فى بلنسية بعد هذه الفجيعة وفقدان الوطن والمال والاصدقاء والامن . ولم يكن له ان يبقى

---

(1) لابى المطرف عدد من الرسائل النثرية التى يندب فيها سقوط بلنسية.

فى اى مكان اخر بالاندلس وقد كان يشعر بأن المدائن الاخرى ستصير الى ما صارت اليه بلنسية . لهذا فر الجلاء الى العدوة الافريقية . ويقول ابن خلدون انه هاجر الى تونس حضرة افريقية على حين يقول الغبرينى انه ذهب من الاندلس الى بجاية اولا وعلم فيها ودرس ثم انتقل منها الى تونس . وانا أؤيد [1] رأى ابن خلدون .

انتقل ابن الابار باهله الى تونس غبطة منه باقبال السلطان عليه . فنزل منها بخير مكان ، ورشحه لكتب علامته [2] فى صدور رسائله ومكتوباته . فكتبها مدة .

ثم ان السلطان ابا زكريا يحيى اراد صرفها لابى العباس

---

(1) دليلى على ذلك ما ورد فى صفحة 425 من الجزء الثانى من التكملة . فقد ترجم ابن الابار نذير بن وهب بن لب ... الفهرى (رقم 1217) وقال فى آخر الترجمة : « ولما تغلب الروم على بلنسية قصد دانية ، وولى قضاءها الى ان توفى بها فى العشر الوسط لشعبان سنة 636 بعد ستة أشهر من الحادثة على بلنسية ، وأنا حينئذ بحضرة تونس فى توجهى اليها » فقد كان ابن الابار اذاً فى تونس بعد ستة اشهر من سقوط بلنسية فلو كان قد ذهب الى بجاية واستقر بها للتدريس لما كان معقولا أن يصير بتونس بعد ستة اشهر من مغادرة الاندلس .

(2) كانت علامة السلطان المستنصر بالله عبارة « الحمد لله والشكر لله »

الغسانى ، لانه كان يحسن كتابتها بالخط المشرقى . وكان آثر عنده من الخط المغربى . فسخط ابن الابار أنفة من ايثارغيره عليه . وافتات على السلطان بوضعها فى كتاب امر بانشائه - عند ما كانت كتابة الرسائل فى تونس مقصورة عليه - وان يبقى مكان العلامة فى الكتاب شاغرا ليكتبها ابو العباس الغسانى، فجاهر بالرد ، ووضعها استبداداً منه وانفة. وعوتب على ذلك ، فاستشاط غضبا ، ورمى بالقلم ، وانشد :

اطلب العز فى لظى وذر الذلـــل واو كان فى جنان الخلود

فنمى ذلك الى السلطان، فـامر بلزومه [1] بيته .

ولما كانت ولاية السلطان يحيى ابى زكريا تنتهى فى سنة 647 هـ (1249 م) وكان وصول ابن الابار الى تونس فى سنة 636 هـ كان لا بد ان يكون هذا الحادث قد وقع بين هذين التاريخين، وهنا يمكن القول بأن ابن الابار لما غضب عليه السلطان ترك تونس وذهب الى بجاية حيث اقام مدة بعيداً عن حضرة السلطنة، يكتب ويؤلف ويدرس. ويؤيد

(1) صفحة 205 وما بعدها من الجزء الثالث من أزهار الرياض.

هذا الرأى ما ذكره ابن سعيد [1] فى كتابه « القدح المعلى » عند تعرضه لابن الابار، وقصيدته السينية التى انشدها ابا زكريا يحيى، وانها فى جودتها وشهرتها شبيهة بقصيدة عمرو بن كلثوم: الاهبى بصحنك فاصبحينا، فقد قال ابن سعيد: « الا أن اخلاقه لم تعنه على الوفاء بأسباب الخدمة فقلصت عنه تلك النعمة، وأخر عن تلك العناية، وارتحل الى بجاية. وهو الان عاطل من الرتب، خال من حلى الادب، مشتغل بالتصنيف فى فنونه، متنقل منه بواجبه ومسنونه ... ». فهذا النص صريح [2] على انتقال ابن الابار الى بجاية بعد ان كان فى تونس، وعند ما غضب عليه السلطان.

نعم من الجائز ان يكون انتقال ابن الابار الى بجاية فى عهد الامير يحيى ابى زكريا عند ما غضب عليه. وقد تمكن ابن الابار اثناء بعده فى بجاية من ان يؤلف كتابه « اعتاب

---

(1) ولكنه مع ذلك لا يحدد التاريخ، وربما كان الانتقال فى عهد المستنصر بالله.

(2) اقتبس هذا المقرى فى صفحة 205 من الجزء الثانى من نفح الطيب طبعة أوربا.

الكتاب ، ومن الجائز ايضا ان يكون انتقال ابن الابار الى بجاية في عهد السلطان ابى عبد الله المستنصر بالله الذى امر بقتله سنة 658 عند ما غضب عليه. فقد ورد ما يثبت ان ابن الابار كان مقيما فى بجاية يدرس العلم و كتبه .. ومنها المعجم .. فى سنة 655. ذكر ذلك أحد تلامذته علي بن محمد بن ابى القاسم . . . التجيبى ، وكتبه بخطه فى مخطوط المعجم فى أصحاب القاضى ابن أبى سكرة [1] الصدفى.

وليس ثمة ما يمنع أن يكون انتقال ابن الابار الى بجاية قد حدث مرتين احداهما فى عهد ابى زكريا والثانية فى عهد ابنه المستنصر بالله فقد غضب عليه كلاهما .

وألف ابن الابار كتابه « اعتاب الكتاب » ورفعه الى السلطان أبى زكريا ، واستشفع بابنه المستنصر بالله. فقبل السلطان شفاعته، وأقال عثرته وأعاده الى الكتابة .

ولما خلف السلطان المستنصر بالله أباه أبا زكريا بعد موته سنة 647هـ رفع ابن الابار الى حضور مجلسه ، مع من كانوا

(1) انظر صفحة 110 من هذا المؤلف تحت عنوان « 2 ـ من كتاب المعجم »

يحضرونه من اهل الاندلس ولكن حدث ما اغضب عليه السلطان الذى شفع له عند والده، والذى كان ولى نعمته. والمؤرخين فى سبب هذا الغضب مذاهب، فهم يقولون[1]: انه كان بينه وبين الوزير ابى عبد الله بن ابى الحسين نفور وحقد قديم، سببه انه لما قدم ابن الابار من بلنسية نزل فى بنزرت، وخاطب ابن ابى الحسين بالغرض من قدومه الى العدوة فى رسالة بعث بها اليه، ووصف والد ابى عبد الله هذا فى عنوان هذه الرسالة بنعت «المرحوم» فنبه الى ان الوالد حي لم يمت: فضحك وقال: «ان اباً لاتعرف حياته من موته لاب خامل». فبلغت هذه العبارة ابا عبد الله بن ابى الحسين. فاسرها فى نفسه، وسعى به عند السلطان، فامر باشخاصه الى بجاية. ثم رضى عنه واستقدمه. ولكن ابن الابار عاد الى مساءة السلطان بنزعاته، وحدث ان جرى فى بعض الايام ذكر مولد الواثق ابن السلطان، وتاريخه. وساءل عنه السلطان بعض من حضره، واراد ان يعرف طالع

(1) صفحة 206 ـ 207 من الجزء الثالث من أزهار الرياض.

هذا التاريخ ، فاستبهم . ولكن ابن الابار جاء بالطالع وكان طالع نحس ، فاتهم بتوقع المكروه للدولة والتربص بها ، كما كان اعداؤه يشيعون عنه، بما كان يعرف من التنجيم والنظر فى النجوم . فاعرض عنه السلطان ، وبعث به الى داره . وامر ان تجمع كتبه التى وجدت بها رقعة فيها كما زعموا مقطوعة أولها :

طغا بتونس خلـــق سموه ظلما خليفـــه

فاستشاط السلطان لهذا ، وامر بامتحانه . ثم بقتله . فقتل قعصاً بالرماح وسط المحرم سنة 658 هـ. ثم احرق شلوه . وسيقت مجلدات كتبه واوراق سماعه ، ودواوينه [1] فاحرقت معه .

ويبدو من الرواية السابقة ان بدء الخلاف كان بصرف ابن الابار عن كتابة « علامة السلطان » ، واسناد كتابتها الى ابى العباس [2] الغسانى .

هذا ما كان من غضب السلطان ابى زكريا

---

(1) هذه رواية أزهار الرياض صفحة 206 ـ 208 من الجزء الثالث نقلا عن تاريخ ابن خلدون .

(2) هو أبو العباس أحمد الغسانى كان أديبا وكاتبا مجيدا وشاعرا مرحا . كان رئيس الكتاب عند سلطان افريقية . ويصفه ابن سعيد فى =

يحيى عليه . اما غضب ابنه السلطان المستنصر بالله فواضح أن المؤرخين ينسبون الى كاتبه - ووزيره - ابى عبد الله بن[1] ابى الحسين المؤامرة ضد ابن الابار ، ولا أريد ان أقلل من قيمة هذه الروايات التاريخية او أطعن فى صحتها اذ ليس لدي ما ينافيها ، ولكنى أريد ان أفهم نفسية ابن الابار وأخلاقه لاستعين بذلك على فهم استجاباته للظروف الجديدة التى أحاطت به فى افريقية ، والتى كان فيها حتفه .

= «المغرب» بقوله : « بماذا اصفه ولو ان النجوم تصير لى نثرا لما كنت أنصفه . وكفاك أنى اختبرت الفضلاء من البحر المحيط الى حضرة القاهرة فما رأيت احسن ولا أفضل عشرة منه . ولما فارقته لما أشعر الا برسالته قد وافتنى بالاسكندرية من تونس . وفيها قصيدة فريدة منها :

ايه ابا الحسن استمع شدوى فقد ... يصغى الحمام اذا الحمام ترنما

ومن شعره فى خسوف القمر :

كان البدر لما ان علاه ... خسوف لم يكن يعتاد غيره

سجنجل غادة قلبته لما ... اراها شبهها حسداً وغيره

(1) كان اولا كاتب الامير ابى زيد عبد الرحمن بن الشيخ أبى محمد بن ابى حفص ، لما كان والى افريقية فلما عزل وخلف الامير ابو زكريا عبد الواحد ابقاه فى عمله ، غير ان السلطان أبا عبد الله المستنصر بالله صرفه عن الكتابة اولا واستوزر مكانه ابا عبد الله بن ابى يهدى الذى تآمر عليه بمعونة اخويه . فعزله السلطان واعاد ابا عبد الله الى مكانه (انظر صفحة 280 - 281 من الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون) .

كانت سن ابن الابار احدى واربعين سنة عند ما هاجر باسرته الى تونس . وقد كان من قبل، كتب عن ثلاثة أمراء، وتثقف فى العلوم والفنون، وبرع فى رسائل الديوان، ورأس الوفد الذى بعث به الرئيس أبو جميل زيان الى سلطان افريقية للمبايعة وطلب الانقاذ . واذاً فقد كان ابن الابار قد وصل من المكانة العلمية [1] والاجتماعية ما جعله يحس بتميزه، وسمو مركزه، وتفوقه على نظرائه ممن لقيهم فى افريقية .

وكان فقدان الاوطان والاهل، والاصدقاء، والمال، والوسط العلمى والاجتماعى الراقى، والمركز الممتاز فى بلنسية صدمة عنيفة على ابن الابار وهو رجل جد وتزمت، نصيبه من المرح والدعابة الطبيعية قليل، فاثر هذا كله فى مزاجه وخلقه وكون عنده عقدة العظمة وعقدة الضعة معاً . اما عقدة العظمة فشعوره بامتيازه وتفوقه فى الماضى والحاضر، واما عقدة الضعة فلانه وجد من اقرانه ومنافسيه من اكتسب بحسن السياسة، ولطف

---

(1) يصفه مؤلف فوات الوفيات بأنه « كان ذا رياسة واقية، وأبهة ونجل وافر »

الدعابة ، وجميل الحياة ، عطف السلطان وتاييده ، وبدأ ابن الابار يتذمر من تلك الظروف الجديدة والحياة الجديدة التى كان يرجو فيها ان يكون رئيسا نافذ الكلمة ، محترم الرأى ، فغلبه على امره آخرون امثال الوزير الكاتب ابى عبد الله بن ابى الحسين وابى العباس احمد الغسانى . ونما عند ابن الابار ضيق فى العطن ، وانفة وكبرياء ، وتذمر ، وتحد ، مما نفر الناس منه واكثر اعداءه ، وقلل اصدقاءه . وربما يعذر ابن الابار فى تلك المرحلة من حياته بافريقية بعد ان امضى طفولته وشبابه وكهولته فى عز شامخ ، ومجد رفيع بالاندلس . فلم يكن هو وحده المتذمر من تلك الحياة الجديدة . فلقد ورد فى بعض الرسائل التى كتبها غرناطى هاجر الى افريقيا ما ياتى :

« كتب الى الشيخ الفقيه المعظم الخطيب الفاضل القدوة الصالح البقية ، والجملة الفاضلة النقية ، العدل الارضى ابو عبد الله بن قطية ادام الله سموه ورقيه بما نصه :

الحمد لله جوابكم [1] ياسيدى رضى الله عنكم ، ومتع

(1) المعنى ما جوابكم وما فتواكم فى نازلة وهى ... الخ ؟ واخطأ ميللر حين جعلها ما سؤالكم ؟

المسلمين بحياتكم، فى نازلة، وهى ان قوماً من هؤلاء الاندلسيين الذين هاجروا من الاندلس، وتركوا هناك الدور والارضين، والجنات والكرمات، وغير ذلك من انواع الاصول، وبذلوا زيادة على ذلك من ناض المال، وخرجوا من تحت حكم الملة الكافرة، وزعموا انهم فروا الى الله سبحانه بادیانهم وانفسهم واهليهم وذويهم، وما بقى بايديهم، او أيدى بعضهم من الاموال، واستقروا بحمد الله سبحانه بدار الاسلام تحت طاعة الله ورسوله، وحكم الذمة المسلمة، ندموا على الهجرة بعد وصولهم بدار الاسلام، وتسخطوا. وزعموا انهم وجدوا الحال عليهم ضيقة، وانهم لم يجدوا بدار الاسلام التى هى دار المغرب هذه.. صانها الله وحرس اوطانها ونصر سلطانها .. بالنسبة الى التسبب فى طلب انواع المعاش على الجملة، رفقاً ولا يسرا. ولا مرتفقا، ولا الى التصرف فى الاقطار امنا لائقا. وصرحوا فى هذا المعنى بأنواع من قبيح الكلام، الدال على ضعف دينهم، وعدم صحة يقينهم فى معتقدهم، وان هجرتهم لم تكن لله ورسوله كما زعموا، وانما كانت

لدنيا يصيبونها عاجلا عند وصولهم ، جارية على وفق اهوائهم فلما لم يجدوها وفق اغراضهم صرحوا بذم دار الاسلام وشأنه، وشتم الذى كان السبب لهم فى هذه الهجرة وسببه ، وبمدح دار الكفر واهله ، والندم على مفارقته . وربما حفظ عن بعضهم انه قال على جهة الانكار للهجرة الى دار الاسلام التى هى هذا الوطن - صانه الله - الى هاهنا يهاجر من هناك ؟ بل من هاهنا تجب الهجرة الى هناك . وعن آخر منهم ايضا انه قال : ان جاز صاحب قشتالة الى هذه النواحى نسير اليه فنطلب منه ان يردنا الى هناك ، يعنى دار الكفر . وعن بعضهم ايضا انهم يرومون اعمال الحيلة فى الرجوع الى دار الكفر ، ومعاودة الدخول تحت الذمة الكافرة كيف امكنهم . فما الذى يلحقهم فى ذلك من الاثم ونقص رتبة الدين والجرحة ؟ وهل هم به مرتكبون المعصية التى كانوا فروا منها ان تمادوا على ذلك ولم يتوبوا، ولم يرجعوا الى الله سبحانه منه ؟ وكيف بمن يرجع منهم بعد الحصول فى دار الاسلام، والعياذ[1] بالله.

---

(1) صفحة (42 - 44) من الجزء الاولى من مجلة : =

وانما سقت هذه الرسالة التى تتضمن شعور جماعة من المسلمين هاجروا من الاندلس الى المغرب ، لاوضح فقط ، كيف ان الحالة الجديدة التى صار اليها معظم هؤلاء المهاجرين لم تكن من الاسعاد لهم، بحيث تعوض عليهم ما فقدوه فى وطنهم الاول ، حتى لقد ذهب بعضهم الى التفكير فى العودة الى دار الكفر . ومهما يكن رأى الاسلام فى هؤلاء الناس فان ثمة حقيقة بارزة هى تذمر هؤلاء المهاجرين من نوع الحياة الجديدة وعدم ارتضائها .

ولا أريد ان أدخل ابن الابار ضمن هذه الطائفة ، ولكن أريد ان التمس له العذر عندما أجده وقد ضاق ذرعا بما جد فى حياته بعد ما كان فى رغد من العيش ، وعز من السلطان . وهو - كما قلت - رجل عصبى المزاج ، حساس .

لذلك لاغرابة ان يزيد فى ابن الابار بأوه، وضيق خلقه، عندما يجد ان من حوله من العلماء والامراء والسلاطين دونه

= Beiträge zur Geschichte der Westlichen Araber, herausgegeben von Marcus - Joseph Müller, 1866 .

فى العلم والثقافة ، وهو دونهم فى الجاه والمكانة . يؤيد هذا ما رواه المقرى فى ازهار الرياض [1] بقوله : « وكان فى ابن الابار أنفة ، وبأو ، وضيق خلق . وكان يزرى على المستنصر فى مباحثه . ويستقصر مداركه . فخشن له صدره ، مع ما كان يسخط به السلطان من تفضيل الاندلس وولاتها عليه » . وليس بمستبعد على ابن الابار ان يظهر تفضيله للاندلس وولاتها ، وتحقيره لافريقية وأمرائها ، بفعل ذلك بحسن نية ، أو نتيجة لتضايقه من الحالة التى هو فيها . وقد ادرك ولا شك قيمته العلمية وامتيازه على نظرائه .

ويظهر ان ابن الابار لم يكن فى افريقية حسن المخالطة ، لطيف المعاشرة متواضعا . لذلك نفر منه الزملاء والرؤساء مع حاجتهم اليه . يؤيد هذا ما رواه المقرى فى نفح الطيب [2] : من ان ملك تونس كان اذا أشكل عليه شىء ، او ورد عليه لغز او معمى او مرقم بعث به اليه فيحله . واذا حضر عنده لا يكلمه ،

---

(1) صفحة 206 من الجزء الثالث .

(2) صفحة 868 من الجزء الثانى طبعة أوربا .

ولا يلتفت اليه .ووجد فى تعاليقه ما يشين دولة صاحب تونس.
وفى هذا المعنى يقول ابن الابار نفسه :

أمرى عجيب فى الامور بين التوارى والظهور
مستعجل عند المغيب ومهمل عند الحضور

ويظهر ان ابن الابار كان عنيفاً فى خصومته ، حاداً فى معاملته ، يقرص ويؤلم عند ما ينال خصمه بالهجاء او الاهانة، ثم يختفى كما يفعل الفار . ومن هذا جاءه لقب « الفار » الذى اطلقه عليه خصومه . وقعت بينه وبين ابى الحسن على ابن شلبون المعافرى البلنسى مهاجاة قال فيها ابو الحسن :

لاتعجبوا لمضرة نالت جميع الناس صادرة عن الابار
أوليس فاراً خلقة[1] وخليقة و الفار مجبول على الاضرار

وكان رد ابن الابار عليه ـ بالرغم من قسوة الهجاء ـ محتشما أديبا :

قل لابن شلبون مقال تنزه غيرى يجاريك الهجاء فجار

---

(1) هذه الاشارة تفيد ان شكل ابن الابار ـ او خلقة وجهه ـ شبيه بشكل الفار . وكثيرا ما يطلق اللقب بناء على الخلقة الجسمية .

«انا اقتسمنا خطتينا بيننا فحملت برة واحتملت فجار»[1]

ولكن ابن الابار ليس باول كاتب - او وزير - يدس عليه عند سلطانه ، وينجح الدساسون فى الايقاع به وتنتهى حياته بالقتل ، والتشهير ، وحرق الكتب والمؤلفات التى كانت له او عنده . ففى تاريخ البشر حوادث كثيرة من هذا الضرب .

لقد عاش ابن الابار ثلاثا وستين سنة كان معظمها نكدا وتنغيصا عليه ، وقلقا واضطرابا ، وتذمرا وبلوى . ولكنه بالرغم من كل هذا كتب والف وانتج ودرس وولى القضاء وقرض الشعر ، وترك وراءه ، ذخيرة تاريخية وادبية قيمة . وقال عنه ابن سعيد فى المغرب : « حامل راية الاحسان ، والمشار اليه فى هذا الاوان ... وهو حافظ متقن ، له فى الحديث والادب تصانيف » .

لقد كانت وفاته خسارة على الادب والكتابة والتاليف ، كما كان احراق كتبه التى ضاع بعضها فلم نعثر عليه قط[2] . ولعل

---

(1) هذا تضمين لبيت النابغة الذبيانى .

(2) مثل كتاب التاريخ وكتاب هداية المعترف فى المؤتلف والمختلف .

ابن الابار سئم الحياة مع الناس ، ومضا يقتهم اياه ، وامتنانهم عليه فقال :

رجوت الله فى اللألاء لما بلوت الناس من ساه ولاهى
فمن يك سائلا عنى فانى غنيت بالافتقار الى الاله

obeikandi.com